الأدب العالمي للناشئين

مغامرات هاكلبيري فين

مارك توين

مغامرات هاكلبيري فين

تأليف
مارك توين

ترجمة
كوثر محمود محمد

هنـــداوي

مغامرات هاكلبيري فين

مارك توين

The Adventures of Huckleberry Finn

Mark Twain

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: إيمان إبراهيم، تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي

الترقيم الدولي: ٧ ٠٣٧٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٨٤.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- المشهد: وادي المسيسبي قبل أربعين إلى خمسين عامًا (١٨٣٥–١٨٤٥) ٧
٢- نذير شؤم ١٣
٣- كوخ والدي ١٩
٤- اكتشاف ٢٣
٥- نار من مخيم ٢٧
٦- منزل في النهر ٣١
٧- على الحطام ٣٣
٨- مصير الحطام ٣٥
٩- نزاع الأسرتين ٤١
١٠- ملك ودوق ٤٥
١١- مسرحية المخيم ٤٩
١٢- هارفي وويليام ويلكس ٥٣
١٣- خطة الدوق ٥٥
١٤- اعتراف هاك ٥٩
١٥- اختفاء جيم ٦٣
١٦- توم سوير ٦٥
١٧- إنقاذ جيم ٦٧
١٨- مغامرة توم ٦٩
١٩- النهاية ٧٣

الفصل الأول

المشهد: وادي المسيسبي قبل أربعين إلى خمسين عامًا (١٨٣٥–١٨٤٥)

توم والأرملة

لن تعرفوني إلا إن كنتم قد قرأتم كتابًا بعنوان «مغامرات توم سوير»، لكن لا يهم، فهذا الكتاب كتبه السيد مارك توين وهو رجل يقول الحقيقة — في أغلب الأحوال — لكنه غالى في بعض الأمور، غير أن هذا ليس بالشأن المهم، فلم ألق شخصًا لم يكذب في وقت من الأوقات عدا الأرملة أو الخالة بولي، وبهذا أقصد عمة توم، التي تدعى بولي، هي والأرملة دوجلاس سيكونان في هذا الكتاب الذي تشكل الحقيقة الجزء الأكبر منه كما قلت من قبل.

انتهى كتاب «مغامرات توم سوير» بعثوري أنا وتوم على المال الذي خبأه اللصوص بالكهف، مما جعلنا أثرياء؛ فحصل كل منا على ستة آلاف دولار ذهبًا وأودع القاضي ثاتشر النقود لنا في بنك وأمكننا أن نحصل منها على دولار يوميًّا؛ إذ لم ندر بأي حال ما الذي يمكننا فعله بكل تلك النقود، وقد أوتني الأرملة دوجلاس كابن لها وتعهدت بأن تصنع مني شخصًا مهذبًا.

كانت الحياة في منزل الأرملة دوجلاس صعبة على الدوام، إذ كانت شديدة الاهتمام بالنظام، والتزمت بقواعد اللياقة في جميع تصرفاتها، فلما لم أعد قادرًا على احتمال هذا، فررت من منزلها؛ ارتديت ملابسي القديمة وشعرت بالرضا والحرية، لكن توم سوير

بحث عني وعثر علي وأخبرني بأنه يخطط لتشكيل عصابة من اللصوص، وأخبرني بأنني قد أنضم إليها إن عدت إلى الأرملة دوجلاس وأحسنت التصرف، ومن ثم عدت إلى هناك.

بكت الأرملة لحالي ودعتني الحمل الضال المسكين، ونعتتني بأوصاف أخرى، لكنها لم تقصد قط أن تسيء إلي، ثم ألبستني ملابس جديدة، فما كان مني إلا التصبب عرقًا والشعور بأنني مقيد.

ثم عادت الوتيرة القديمة من جديد. دقت الأرملة جرس العشاء ووجب علي أن أَحضره في الموعد، ولم يكن باستطاعتي أن أبدأ في تناول الطعام على الفور عندما أصل إلى المائدة؛ كان علي أن أنتظر أن تحني الأرملة رأسها وتتمتم قليلًا بشيء فوق الطعام الذي لم يعبه شيء سوى أن كل صنف فيه يقدم على حدة، وقد اعتدت على تناول يخنة تمتلئ بأصناف مختلفة من الطعام تمتزج في اليخنة وسط عصارتها وتصبح شهية الطعم.

كانت السيدة واتسن أخت الأرملة دوجلاس قد أتت لتوها لتسكن معها، لقد انتقلت إلى هناك بعدي في الليلة الأولى من عودتي إلى المنزل ومعها كتاب لتعليم الهجاء، وعملت على تعليمي هجاء بعض الكلمات لقرابة ساعة إلى أن جعلتها الأرملة دوجلاس ترفق بي، إذ لم أستطع تحمل المزيد.

قصدت غرفتي وجلست بجانب النافذة، وحاولت أن أفكر في أي شيء مبهج، لكن بلا طائل. شعرت بالحزن والوحدة، وتمنيت بعض الرفقة، فلم ألبث أن سمعت غصنًا يتكسر في الظلام، فجلست ساكنًا وأنصت، فسمعت بالكاد صوتًا يقول: «مياو! مياو!»

فقلت: «مياو! مياو!» بقدر ما استطعت أن أخفض صوتي، ثم أغلقت نور الغرفة وتسلقت عبر النافذة إلى سطح الحظيرة المجاورة ثم هبطت إلى الأرض وزحفت متسللًا بين الأشجار فوجدت توم ينتظرني كما توقعت.

سلكنا طريقًا قصيرًا، لكن أثناء مرورنا بالمطبخ سقطت أنا على جذر نبتة محدثًا صوتًا عاليًا، فجثمنا على الأرض ورقدنا بلا حراك، إذ كان جيم عبد السيدة واتسن يجلس عند باب المطبخ.

قال جيم: «من هناك؟»

ثم أنصت مجددًا بعض الوقت وسار تجاهنا عدة دقائق إلا أن السكون كان يخيم على المكان. لا شك أنه أدرك أن شخصًا ما بالجوار مع أنه لم يستطع رؤيتنا، فقد جلس على الأرض على مقربة مني أنا وتوم وقال إنه يعلم أن شخصًا ما بالجوار وأخبرنا بأنه سينتظر إلى أن نظهر، ثم أسند ظهره إلى شجرة ومدد ساقيه حتى كادت إحداهما تلمس ساقي، لكن لم تلبث أنفاسه أن تثاقلت وأخذ يغط في النوم، فاستطعنا أن نفلت منه أخيرًا.

عندما وصلت أنا وتوم إلى حافة قمة التل، نظرنا إلى القرية بالأسفل وأمكننا رؤية ثلاثة أو أربعة أضواء تلتمع. كانت النجوم فوقنا تتلألأ، وبالأسفل إلى جانب القرية جرى النهر. بلغ عرضه ميلًا كاملًا وكان عظيم الامتداد، وشديد الركود. وجدنا جو هاربر وبين روجرز واثنين أو ثلاثة آخرين من الصبية، فحللنا رباط قارب صغير طفا بنا في النهر إلى الجرف الضخم الموجود بجانب التل وصعدنا الشاطئ.

اتجهنا نحو مجموعة من الشجيرات، جعل توم الجميع يقسمون عندها بأن يحافظوا على سرية هذا المكان، ثم أرانا فتحة في التل عند أكثر نقطة تحتشد فيها الشجيرات، فأشعلنا بعض الشموع وزحفنا إلى داخله على أيدينا وركبنا، وبعد دقيقة أو اثنتين ظهرت فتحة بالكهف مررنا عبرها ثم انحنى توم تحت حائط بالكهف وزحف إلى فتحة أخرى، فتبعناه عبر ممر ضيق إلى أن دخلنا مكانًا يشبه الحجرة، ذا هواء شديد البرودة كثيف الرطوبة.

قال توم: «الآن سنؤسس هذه العصابة التي سندعوها عصابة توم سوير. كل من يود الانضمام إلى تلك العصابة عليه أن يدلي بقسم.»

كنا على استعداد لذلك، فأخرج توم قصاصة ورقة كُتب عليها قسم بأن يتعهد كل صبي بالوفاء للعصابة، وبألا يبوح قط بأي من أسرارها، وبأنه إن آذى أحد الصبية آخر فسيؤمر صبي من سائر الصبية بالاقتصاص منه ومن عائلته وسيضطر إلى القيام بذلك.

الجميع قالوا إنه قسم رائع وسألوا توم إن كان قد ألفه بنفسه، فقال إنه ألف أجزاء منه أما الأجزاء الأخرى فكانت من كتب القراصنة وكتب اللصوص، وأخبرنا بأن كل عصابة ذات شأن يجب أن تقسم قسمًا كهذا.

فقال بين روجرز: «لكن مهلًا يا توم. فين ليست لديه أسرة. كيف سنقتص منه إن لم تكن لديه أسرة؟ ماذا سنفعل بشأنه؟»

فسأل توم: «حسنًا، أليس له والد؟»

فأجابه بين روجرز: «نعم، لكنك لن تستطيع أبدًا العثور عليه هذه الأيام. لقد اعتاد إثارة الكثير من المشكلات في كافة أرجاء البلدة، لكن لم يره أحد هناك منذ عام أو أكثر.»

تباحثوا في الأمر، وكانوا سيمنعونني من الانضمام إلى العصابة، إذ لم يستطع أحد أن يجد حلًّا، وكدت أن أبكي لولا أن خطر لي فجأة حل. طرحت عليهم الاقتصاص من السيدة واتسن، فرضوا بذلك، وسمحوا لي بالانضمام إليهم.

بعدئذ أخبرنا توم أننا سنصبح قطاع طرق.

قال: «سنعترض مركبا ينقل المسافرين وعربات الخيل، ونرتدي أقنعة ونستحوذ على نقود الركاب والساعات التي يرتدونها، ونأخذ بعضهم إلى الكهف ونبقيهم هناك إلى أن نحصل على فديتهم.»

فسأل بين روجرز: «فديتهم؟ ما الذي يعنيه هذا؟»

فقال توم: «لا أدري، لكن هذا هو ما يفعله اللصوص، حتى إنني رأيت هذا في بعض الكتب، لذا هذا هو ما يتعين علينا فعله بالطبع.»

– «لكن كيف سنفعل ذلك إن كنا لا ندري ما الذي يعنيه؟»

فقال توم: «علينا فعل ذلك وحسب. ألم أخبرك بأنه في الكتب؟ هل تريدنا أن نقوم بالأمور على نحو مختلف، فيفسد كل شيء.»

فقال بين: «حسنًا، لكن كيف سنحصل على فدية هؤلاء القوم إن لم ندر كيف؟»

– «لا أدري، لعل الإبقاء عليهم إلى أن نحصل على فديتهم يعني إبقاءهم هنا وقتًا طويلًا جدًّا.»

– «مدهش! لِمَ لم تقل هذا من قبل؟! سنبقيهم هنا وقتًا طويلًا جدًّا إلى أن نحصل على فديتهم! سيكون هذا مزعجًا يا عزيزي، سيلتهمون كميات كبيرة من الطعام وسيحاولون على الدوام الفرار.»

– «كيف سيمكنهم الفرار، إن كان هناك حارس يراقبهم؟»

– «حارس؟ جيد! إذن سيضطر أحدنا إلى السهر طوال الليل وعدم النوم على الإطلاق لحراستهم! أعتقد أن هذا سخف، ولا أرى سببًا يدعونا إلى القيام بهذا.»

– «السبب هو أن هذا هو ما ورد في الكتب. هل تود أن تلزم الصواب أم لا؟ ألا تعتقد أن من كتبوا هذه الكتب يدركون كيف يقومون بالأمور على نحو صائب؟ أتعتقد أن بإمكانك أن تعلمهم أي شيء؟ لا تستطيع أن تعلمهم شيئًا على الإطلاق. لا يا سيدي. سنمضي في الأمر ونحصل على فدية بالطريقة المعتادة.»

كان الصغير تومي بارنرز قد غلبه النوم بحلول ذلك الوقت، فلما أيقظه الصبية شعر بالخوف وأخذ في البكاء، وقال إنه يريد العودة إلى منزله وإلى والدته، وأنه لم يعد يريد أن يصبح لصًّا، فسخر الجميع منه، فغضب وقال إنه سيخبر الجميع بسرنا، فأعطاه توم خمس سنتات ليلزم الصمت، وقال إننا سنلتقي مجددًا الأسبوع القادم لنخطط لأولى سرقاتنا.

بعد أن سرت عائدًا إلى المنزل، تسلقت من جديد إلى سطح الحظيرة، ومنها إلى نافذتي قبل طلوع الفجر بالضبط. كانت ملابسي الجديدة قد صارت ملطخة بالشحم ومغطاة بالوحل وكنت منهك القوى.

الفصل الثاني

نذير شؤم

لم يكن والدي كما قال الصبية قد شوهد منذ أكثر من عام، لكن هذا لم يضرني، إذ لم أرد أن أراه ثانية أبدًا، فقد اعتاد أن يثور غضبًا مني، وأن يلطمني بظهر يده، لكنني اعتدت الاختباء في الغابة أغلب الوقت الذي كان فيه قريبًا. قال البعض أيضًا إنه توفي، لكنني لم أصدقهم، فقد آمنت بأن هذا العجوز سيظهر من جديد، ولو أنني تمنيت ألا يفعل.

لعبت أنا والصبية الآخرون لعبة اللصوص من حين لآخر مدة شهر، ثم انسحبت أنا منها، وانسحب سائر الصبية؛ إذ لم نسرق أي شخص، وإنما تظاهرنا بذلك وحسب. اعتدنا أن نسارع بالخروج من الغابة وأن ننقض على من يحملون النباتات والحيوانات في العربات الذاهبة إلى السوق، لكننا لم نسرق أيًّا منهم قط. كان توم يسمي الخنازير بـ«كنز الذهب»، وثمار اللفت بـ«المجوهرات»، وكنا نقصد الكهف ونتحدث عما قمنا به، إلا أنني لم أر أن الأمر مجد.

مرت ثلاثة أو أربعة أشهر ومضى جزء كبير من الشتاء. كنت قد أخذت في ارتياد المدرسة، وصرت أستطيع هجاء الكلمات والقراءة والكتابة قليلًا، كما أمكنني أن أردد جدول الضرب وصولًا إلى ٦ × ٧ = ٣٥، لكنني لم أحسب أنني أستطيع أن أزيد على ذلك حتى إن حييت إلى الأبد.

كرهت المدرسة في البداية، غير أنني اكتشفت شيئًا فشيئًا أنني أستطيع احتمالها. كنت أتغيب عنها بغير إذن كلما شعرت بالملل، وكانت المشكلات التي ستترتب على ذلك الأمر في اليوم التالي تفرحني، كما بدأت أعتاد بعض الشيء على عادات الأرملة دوجلاس، فهي لم تكن شديدة القسوة، إلا أنني ظللت أجد العيش في منزل والنوم في فراش أمرًا مزعجًا قليلًا، كنت قبل أن يتحول الجو إلى البرودة أتسلل أحيانًا خارج المنزل وأنام

في الغابة، فهذا أشعرني بالراحة. فضلت عاداتي القديمة، إلا أنني بدأت أميل قليلًا إلى العادات الجديدة أيضًا، وقد قالت الأرملة دوجلاس إنني بدأت أحرز تقدمًا وإنني أحسن التصرف، وإنها لا تخجل مني.

تصادف صباح يوم ما أنني أوقعت الملاحة أثناء الإفطار وهذا نذير شؤم، أشعرني بالتوتر والقلق الشديد. انتابني شعور فظيع حتى إنني اضطررت إلى الذهاب للتمشية لأحاول أن أهتدي إلى طريقة أصرف بها عني هذا الحظ السيئ. كنت أعلم أن شرًّا ما سيقع.

اتجهت إلى الحديقة الأمامية وتسلقت سورًا. كان يغطي الأرض ثلج سقط مؤخرًا ووصل ارتفاعه بوصة، أبصرت عليه آثار قدمي شخص ما. أتى هذا الشخص من المحجر ثم وقف بعض الوقت دون أن يفعل شيئًا، ثم عاد ودار حول سور الحديقة. من الغريب أنه لم يدخل أو يطرق الباب بعد أن وقف هكذا. انتابني الفضول، فعزمت على اقتفاء أثره، لكنني بعدئذ انحنيت لأتأمل الأثر عن كثب. حُفر على كعب الحذاء الأيسر علامة على هيئة صليب لصرف الشيطان، كانت على حذاء أبي.

أخذت أركض بأقصى سرعتي، وتلفت خلفي من حين لآخر لكنني لم أر أحدًا، وبلغت منزل القاضي ثاتشر بأسرع ما أمكنني، فسألني إن كنت قد أتيت من أجل بعض من المال الذي يحتفظ به لي.

فأجبته: «لا يا سيدي، لا أريد هذا المال بتاتًا، أود أن تأخذه أنت، أود أن أعطيه لك، الستة آلاف دولار الذهبية، مع كل شيء آخر غيرها.»

فنظر إلي ذاهلًا وبدا أنه لا يفهم الأمر.

فقلت له: «أرجوك أن تأخذ المال، ولا تسألني أي شيء، لن أضطر عندئذ إلى أن أكذب.»

تطلب الأمر بعض الإقناع، فجعلني في نهاية المطاف أوقع على قطعة ورق وقال إن هذا يعني أنني قد وهبته كل أموالي وأملاكي.

بعدئذ تركته لأبحث عن جيم، عبد السيدة واتسن، الذي امتلك بعض الأغراض السحرية التي يفترض أنها تنبئ بالمستقبل. كان جيم على دراية بكل شيء عن الحظ الجيد والعاثر، فأخبرته أن والدي قد عاد مجددًا، وأنني وجدت آثار قدميه على الثلج، فقد أردت أن أعرف ماذا ينوي أن يفعل، وكم من الوقت سيمكث؟

أمسك جيم بكرة من الشعر قديمة، استُخرجت من معدة ثور، يعتقد أنها سحرية — حسبما قال — حجمها بحجم القبضة، وقال إنها تحوي بداخلها روحًا، ثم هزها

وأنصت إليها وأوقعها على الأرض، وفعل ذلك عدة مرات ثم وضع أذنه عليها ليصغي إليها وقال إنها لن تتحدث دون نقود.

كان معي ربع دولار قديم زائف، فسألت جيم إن كانت كرة الشعر تستطيع أن تميز بين النقود الحقيقية والزائفة، فقال إنها لن تستطيع ذلك على الأرجح، فنظفنا ربع الدولار، ووضعناه تحت كرة الشعر، وأصغى إليها جيم مرة أخرى، ثم قال إن الكرة صارت على استعداد لأن تنبأني بحظي.

قال جيم: «والدك العجوز لا يدري بعد ما الذي سيفعله. إنه يفكر أحيانًا في المغادرة، وأحيانًا في البقاء. الحل الأمثل هو أن تهدأ وتترك والدك العجوز يختار طريقه، لكنك ستكون بخير. ستواجه في حياتك الكثير من المتاعب، وستجد الكثير من السعادة، وستتأذى أحيانًا وتمرض أحيانًا، لكن في كل مرة أحوالك ستتحسن من جديد. عليك بالابتعاد عن إثارة المتاعب قدر الإمكان ولا تخض أي مجازفات.»

تركت جيم وأنا أشعر بأنني أفضل حالًا قليلًا، لكنني ظللت أشعر بالقلق الشديد، إلا أنني لم أضطر إلى انتظار ما سيحدث بعد ذلك وقتًا طويلًا، فعندما أشعلت شمعتي وصعدت إلى غرفتي مساء ذلك اليوم، وجدت والدي جالسًا!

أغلقت باب الغرفة، وعندما التفت وجدته. كنت أخشاه دائمًا لشدة إساءته معاملتي، وأعتقد أنني خفت قليلًا عندئذ أيضًا، إلا أنني بعدما تخلصت من دهشتي، أدركت أن خوفي منه لم يكن شديدًا على الإطلاق.

كان في الخمسين من العمر تقريبًا وقد بدا كذلك. كان شعره طويلًا متشابكًا ودهنيًا، يتدلى فوق جبهته، بإمكانك أن ترى من خلاله عينيه تلمعان، وكأنه يقف خلف كرمة، لونه كله أسود وليس رماديًّا، كلون لحيته الشعثة، أما وجهه فالأجزاء التي بدت منه كانت باهتة. كان وجهًا شاحبًا لكن ليس كأي وجه؛ شحوب يشعر المرء بالغثيان لرؤيته، كلون علجوم الشجر أو لون البهاق، أما ملابسه فكانت رثة. جلس وهو يضع كاحل ساق على ركبة ساقه الأخرى، وحذاء تلك الساق ممزق يبرز منه اثنان من أصابع قدمه، حركهما بين الحين والآخر وهو يتكلم، كان ملقى على الأرض قبعة سوداء قديمة متهدلة، ارتخى الجزء الأعلى منها وكأنه غطاء.

وقفت أتأمله فيما جلس هو يتأملني. كان كرسيه مائلًا إلى الخلف قليلًا. تركت الشمعة ولاحظت أن نافذة الغرفة مفتوحة. من المؤكد أنه تسلق سطح الحظيرة ومنها إلى غرفتي. ظل يتأملني، ثم قال في نهاية الأمر: «ملابس أنيقة. هل تحسب نفسك مميزًا الآن؟»

فقلت: «ربما نعم، وربما لا.»

– «لا تفتح فمك بكلمة وقحة! كم تأنقت في غيابي، ويقولون أيضًا إنك صرت متعلمًا؛ تستطيع القراءة، والكتابة. صرت تحسب نفسك أفضل من أبيك الآن، أليس كذلك؟ لأنه لا يستطيع ذلك فحسب، أليس كذلك؟ من أخبرك أن تفعل هذه السخافات؟ من أخبرك بذلك؟»

– «الأرملة دوجلاس.»

– «آها ... الأرملة دوجلاس؟ ومن طلب منها أن تدس أنفها فيما لا يعنيها؟»

– «لا أحد.»

– «إذن سأعلمها ألا تتدخل فيما لا يعنيها. اسمع، ستترك المدرسة. هل تفهمني؟ سأعلم هؤلاء القوم ألا ينشئوا صبيًّا على أن يحسب نفسه أفضل من أبيه. إياك أن أجدك تعبث بالقرب من هذه المدرسة ثانية. لم تستطع أمك القراءة والكتابة قبل أن تموت، لم يستطع أي من أفراد أسرتك هذا قبل أن يموتوا. أنا لا أستطيع هذا، وها أنا ذا أجدك على هذه الحالة. لن أسمح بهذا. بالمناسبة، دعني أسمعك تقرأ.»

فأخذت كتابًا وبدأت أقرأ فيه عن حرب ما، فلم تكد نصف دقيقة تقريبًا أن تمضي حتى طرح الكتاب من يدي.

ثم قال: «إذن هذا صحيح. بإمكانك أن تقرأ. شككت في هذا. اسمع، كف عن التأنق هكذا كأنك أفضل من أبيك. لن أسمح بهذا.»

ثم جلس يتمتم ويتذمر دقيقة، قال بعدها: «ألا تبدو رائعًا؟ لديك فراش، وغطاء فراش، وبساط على الأرض، أما والدك فعليه أن ينام في الخلاء مع الخنازير. أنا هنا في البلدة منذ يومين وكل ما يصل إلى مسامعي هو الأنباء عن ثرائك الهائل. لم أنفك أسمع هذا طيلة الطريق على طول النهر، لهذا عدت. آتني بهذا المال غدًا؛ أريده.»

فقلت: «لا أملك أي مال.»

فرد علي قائلًا: «أنت تكذب، إنه مع القاضي ثاتشر، ائت به أنت، فأنا أريده.»

– «ليس لدي أي مال، بإمكانك سؤال القاضي ثاتشر عن هذا، سيقول لك الأمر نفسه.»

– «حسنًا، سأسأله. وسأجبره على البوح أيضًا. بالمناسبة، كم معك الآن في جيوبك؟ أعطني ما معك.»

– «لا أملك إلا دولارًا أحتاجه لـ ...»

– «لا يهم لم تحتاجه. هاته.»

فأخذ الدولار، وعض على النقود ليتأكد من أنها حقيقية، ثم قال إنه سيذهب إلى البلدة ليمرح قليلًا ويتورط في المشكلات، وفي نهاية الأمر تسلق خارجًا من النافذة، ثم أطل برأسه منها مجددًا واستهزأ مجددًا بحياتي الجديدة وبمحاولتي أن أكون أفضل منه، وعندما حسبته قد غادر بالفعل، أطل برأسه ثانية وأخبرني بأن أبتعد عن المدرسة وبأنه سيرى إن كنت سأذهب إلى هناك.

الفصل الثالث

كوخ والدي

قصد والدي اليوم التالي مكتب القاضي ثاتشر، وأرهبه وحاول أن يجبره على التخلي عن المال، لكنه لم يفلح في ذلك، عندها أقسم بأنه سيحصل على المال عبر المحاكم.

كان بالبلدة قاضٍ جديد لم يكن على معرفة بوالدي، قال إن على المحاكم ألا تفصل بين أفراد الأسرة الواحدة إن أمكن هذا، وإنه يفضل ألا يُبعد الأطفال عن آبائهم، فاضطر القاضي ثاتشر والأرملة دوجلاس أن يكفا عن إبعاد والدي عني.

لم يمض وقت طويل قبل أن يبدأ والدي في ملاحقة القاضي ثاتشر قضائيًّا في المحاكم ليجبره على التخلي عن المال، وفي مطاردتي أنا أيضًا، لأنني لم أكف عن ارتياد المدرسة، فقد اكتشفني هناك عدة مرات، لكنني ظللت أرتاد المدرسة. كنت أتملص منه أغلب الوقت أو أسبقه. لم ترق لي المدرسة إلى هذا الحد، لكنها عندئذ لم ترق لي إلا لأغيظه.

أخذ والدي أيضًا يحوم حول منزل الأرملة دوجلاس، فهددته الأخيرة في نهاية الأمر أنها ستوقعه في ورطة إن لم يكف عن ذلك، الأمر الذي جعله يجن، من ثم انتظرني متخفيًا يومًا ما، واختطفني على حين غرة، واتجه بي عكس اتجاه النهر إلى كوخ قديم من الأحطاب، في نقطة موغلة جدًّا من الغابة، إلى حد أنك لن تستطيع أن تجد الكوخ إن لم تكن تعرف مكانه.

وأبقاني معه طوال الوقت، فلم تسنح لي قط فرصة الفرار. أمضينا اليوم كله آنذاك في ذلك الكوخ القديم. كان والدي دائمًا يغلق باب الكوخ ليلًا ويضع المفتاح تحت وسادته، وقد حمل معه بندقية سرقها. حيينا باصطياد السمك والبحث عن الطرائد، واحتجزني والدي بين الحين والآخر في الكوخ وقصد المتجر القريب لمقايضة الأسماك والطرائد التي اصطادها بالمؤن.

الاستلقاء بلا عمل طيلة الوقت، دون قراءة الكتب أو الاستذكار كان إلى حد ما ممتعًا، ومريحًا. مر شهران أو أكثر وأصبحت ثيابي رثة وقذرة من جديد. لم أستطع أن أفهم كيف أعجبني العيش في منزل الأرملة دوجلاس إلى هذا الحد، حيث تعين على المرء الاغتسال والأكل من الأطباق، وتمشيط شعره، والخلود إلى النوم والنهوض منه في أوقات محددة، والاهتمام بقراءة كتاب ما. لم أرد أن أعود إلى هناك، إلا أنني من ناحية أخرى لم أرد أيضًا أن أمكث مع والدي.

حاولت أن أخرج من الكوخ عدة مرات، لكن لم أهتد قط إلى طريقة، فالنوافذ كانت شديدة الصغر، وضيق فتحة المدخنة الشديد منعني من تسلقها. فتشت المكان مئات المرات إلى أن عثرت أخيرًا على منشار قديم صدئ، أخذت أصنع ثقبًا بالمنشار في الجزء السفلي من ظهر الكوخ. أردت أن أصنع فتحة تتسع لأن أزحف مارًّا عبرها. استغرقت تلك المهمة وقتًا طويلًا، لكنني كنت قد شارفت على الانتهاء منها عندما سمعت صوت بندقية أبي بالغابة، فأخفيت ما يدل على ما كنت أعمل عليه، ولم يمض وقت طويل قبل أن يصل أبي.

لم يكن في مزاج جيد — كالمعتاد — فقد كان بالبلدة، لم تسر المحاكمة على ما يرام، وسير القضية كان بطيئًا ويستغرق وقتًا طويلًا. قال محاميه إنه قد يخسر القضية، وسيتعين علي عندئذ أن أعود إلى الأرملة، وأنا حقًّا لم أرد هذا. شعر والدي بغضب عارم في لحظة ما وهو يتحدث عن الأمر حتى إنه ركل برميل زيت قديم وآذى قدمه، فأخذ يقفز في أرجاء الغرفة صائحًا باللعنات وقتًا طويلًا. لم تثر ثائرته هكذا من قبل.

أمرني والدي بالذهاب إلى قاربه لإحضار ما أتى به. خطر لي وأنا خارج المنزل أن معاناتي قد انتهت وقررت أن أغادر الكوخ ببندقية والدي وبعض صنارات صيد الأسماك. كنت سأختبئ بالغابات عندما أفر، ولا ألزم مكانًا واحدًا بل أجوب أرجاء البلاد ليلًا في الأغلب، وأصيد الأسماك والحيوانات لأظل على قيد الحياة. كنت سأفر إلى مكان بعيد جدًّا حتى إن والدي والأرملة دوجلاس لن يستطيعا قط العثور علي.

كان مزاج والدي سيئًا للغاية بعد العشاء. حسبت أنه لن يلبث أن ينام؛ عندئذ ستسنح لي سرقة مفتاح الكوخ أو صنع فتحة بالمنشار أخرج منها، إلا أنه لم ينم، بل أخذ يتذمر وينوح ثم بدأ يسير جيئة وذهابًا في المكان وقتًا طويلًا، حتى غلبني النعاس في آخر الأمر ولم أستطع إبقاء عيني مفتوحتين، وما لبثت أن وجدت نفسي مستغرقًا في نوم عميق.

لكنني سمعت فجأة صوت صراخ مريع، فاستيقظت. بدا أن أبي قد جن؛ كان يقفز في أرجاء المكان ويصيح بسبب ثعابين قال إنها تزحف متسلقة ساقيه، ثم أخذ يقفز ويصيح، إلا أنني لم أر أي ثعابين، ولم أر قط رجلًا تقدح عيناه بالشرر هكذا. كان يتوهم أشياء، لذا حسبته مريضًا، بل مجنونًا. لم يلبث أن شعر بالتعب وهوى على الأرض حيث تقلب عدة مرات بسرعة شديدة وهو يركل الأشياء بقدميه ويتشبث بيديه بالهواء ويصيح بأن هناك شياطين في كل مكان، وفي آخر الأمر شعر بالتعب مجددًا وتمدد ساكنًا بعض الوقت يتأوه.

قال: «خطى ثقيلة! الموتى قادمون! طاخ طاخ طاخ. قادمون لملاحقتي، لكنني لن أذهب. إنهم هنا! لا تلمسوني! أيديكم باردة، أفلتوني! آه، اتركوا شيطانًا مسكينًا لحاله.»

ثم زحف مبتعدًا متوسلًا أن يُترك وشأنه، ثم لف غطاء حول نفسه وأخذ يبكي.

لكن قبل أن يمضي وقت طويل هب وأخذ يركض خلفي. لاحقني في أرجاء الكوخ وهو يناديني بملاك الموت. أمسك بي ذات مرة من سترتي من بين كتفي، فظننت أنني هالك لا محالة، لكنني انسللت من السترة بسرعة البرق ونجوت بنفسي، وفي وقت قصير غشيه التعب مجددًا، فسقط على الأرض وهو يولي الباب ظهره.

وسرعان ما غشيه النوم، فتسللت كرسيًّا متوخيًا الهدوء قدر الإمكان وأخذت البندقية وتأكدت من أنها محشوة بالرصاص، ثم وضعتها على براميل بمواجهة والدي، ثم جلست أنتظر أن يتحرك. بدا الوقت ساكنًا جدًّا ومر ببطء شديد.

الفصل الرابع

اكتشاف

– «انهض! ما الذي تفعله؟»

كانت الشمس قد غربت وأنا مستغرق في النوم منذ فترة. وقف أبي وقامته تعلوني والتجهم والسقم باديان عليه، ثم قال: «ما الذي تفعله بهذه البندقية؟»

أدركت أنه لم يدر على الإطلاق بما فعله الليلة الماضية، فقلت: «حاول شخص ما الدخول. كنت أنتظره.»

– «لِم لَم توقظني؟»

– «حاولت لكنني لم أستطع أن أجعلك تتحرك قيد أنملة.»

– «حسنًا. لا تقف مكانك طوال اليوم. اخرج لترى إن كانت السنارة قد اصطادت سمكة نفطر بها.»

فتح أبي الباب، فركضت إلى الخارج متجهًا إلى ضفة النهر. لاحظت أن بعض أفرع الأشجار والأشياء تطفو مع ماء النهر، فأدركت أن مياهه قد أخذت في الارتفاع، فلما سرت على طول ضفته رأيت قاربًا. كان قاربًا جميلًا يبلغ طوله نحو ثلاثة عشر أو أربعة عشر قدمًا، فغصت برأسي أولًا ثم بجسمي كله في الماء مرتديًا كامل ملابسي، وسبحت نحوه. خطر لي في البداية أن والدي سيسعد برؤيته، إذ سيساوي ثمنه عشرة دولارات على الأقل، لكنني عندما صعدت إلى الشاطئ لم أجد والدي، فواتتني فكرة أخرى. قررت أن أخفي القارب وأن أطفو به بالنهر خمسين ميلًا لأخيم في مكان ما إلى الأبد بدلًا من الاختباء في الغابة عندما أفر.

كنت بحلول هذا الوقت على مسافة شديدة القرب من كوخ والدي. ظل يُهيأ لي أنني أسمع صوت والدي وهو قادم، لكنني استطعت آخر الأمر أن أخبئ القارب، ثم رأيت

والدي وهو في طريقه إلي، كان يصوب بندقيته نحو طيور على مسافة بعيدة. لم يكن قد رأى شيئًا.

بعد الإفطار حاولت أثناء استراحتي أنا وأبي أن أفكر في طريقة تمنعه هو والأرملة من تعقبي، سيكون هذا أفضل من الركون إلى أنني أستطيع الفرار قبل أن يلحظا غيابي. ظللت لحظة عاجزًا عن الاهتداء إلى طريقة، لكن في آخر الأمر نهض أبي من رقدته وجلس منتصبًا ليشرب بعض الماء ثم قال: «إن رأيت شخص ما يجول خلسة بالجوار ثانية أيقظني، هل فهمت؟ هذا الرجل لم ينو خيرًا. من الأفضل لك أن توقظني المرة القادمة.»

ثم تمدد وغشيه النوم. ما قاله أمدني بالفكرة التي كنت أحتاج. أمكنني الآن حل المشكلة بحيث لا يفكر أحد أبدًا في تعقبي.

نهضنا قرابة الظهيرة وسرنا على ضفاف النهر. كانت مياه النهر ترتفع بسرعة كبيرة، وقد مر بنا الكثير من الخشب الذي حمله الماء، ولم يمض وقت طويل قبل أن يأتي الماء بجزء من طوف يتكون من تسعة ألواح خشبية مربوطة بعضها إلى بعض، فاتجهنا إليه وجذبناه إلى الشاطئ. أراد أبي أن يتجه مباشرة إلى البلدة لبيع خشبه، فاحتجزني بالكوخ، وأخذ قاربنا الصغير وشرع في ربط الطوف بالقارب. أغلب الظن أن الساعة كانت الثالثة والنصف تقريبًا آنذاك. لم أحسب أنه سيعود مساء هذا اليوم. انتظرت إلى أن شعرت أنه قد ابتعد مسافة كافية، ثم ذهبت لأعاود العمل بمنشاري، وغادرت الكوخ قبل أن يبلغ الناحية الأخرى من النهر.

حملت كل المؤن التي لدينا إلى القارب: فحملت دقيق الذرة، ونصف قطعة لحم خنزير مقدد، وكل القهوة، والسكر، والذخيرة، وأخذت الدلو واليقطينة والمغرفة والكوب القصديري، ومنشاري القديم، وبطانيتين، والمقلاة، ووعاء القهوة، كما أخذت بعض صنانير الصيد، وأعواد الثقاب، وكل ما يساوي ثمنه سنتًا. بعبارة أخرى، أفرغت المكان. أردت فأسًا، لكن لم يكن بالكوخ سوى فأس واحد، وقد خططت لاستخدامه على وجه محدد، في آخر الأمر أخذت معي البندقية.

غطيت آثاري وغطيت الفتحة التي صنعتها في ظهر الكوخ، ووقفت على ضفة النهر، وراقبت الطريق؛ كان آمنًا.

ثم أخذت الفأس وحطمت الباب، وهذا كله كان جزءًا من خطتي. ضربت الباب وكسرته تكسيرًا، ثم سكبت دم خنزير قديم في جميع أرجاء المكان، ثم جررت كيسًا

مملوءًا بالأحجار على الأرض نحو النهر، مخلفًا أثرًا بشع المنظر، وكأن جثة ما قد جُرت. تمنيت لو أن توم سوير معي، فأنا أعلم أنه كان سيجد هذا مشوقًا وكان سيضفي بعض اللمسات الرائعة على الأمر.

بعدئذ نتفت بعض الشعر من رأسي، وحرصت على أن تغطي دماء الخنزير الفأس، الذي ألصقت به بعض هذا الشعر، ثم ألقيته في ركن من الكوخ، وخطرت لي فكرة جديدة، فأخذت كيس دقيق الذرة وثقبته ثقبًا صغيرًا ثم تركت أثرًا في الاتجاه المعاكس لقاربي، وحملت الكيس بين الحشائش إلى بحيرة ضحلة، وألقيت الحجر الذي يستخدمه أبي في شحذ سكينه هناك، وكأنه ترك هناك صدفة، ثم أحكمت إغلاق الثقب الموجود بالكيس وأعدته إلى القارب.

كان الظلام بحلول هذا الوقت قد حل تقريبًا، من ثم أدنيت القارب من النهر تحت بعض أشجار الصفصاف التي تدلت على ضفته وانتظرت طلوع القمر، وتناولت بعض الطعام، ثم تمددت بالقارب لأضع خطة. قلت لنفسي: سيتتبعون الأثر المؤدي إلى الشاطئ ثم يتبعون أثر دقيق الذرة إلى البحيرة ويبحثون عني هناك، وسيظنون أن سارقًا ما قتلني وأخذ كل شيء، فلن يبحثوا إلا عن جثتي، فلا يمضي وقت طويل قبل أن يسأموا من ذلك، فيكفوا تمامًا عن البحث عني. قررت أن أختبئ بجزيرة جاكسون فأنا على دراية جيدة بنواحيها، ولم يقصدها أحد قط، عندها أستطيع أن أجدف بالقارب ذهابًا إلى البلدة ليلًا لأتسلل خلسة وأجلب ما أريد.

شعرت بالتعب الشديد، ولم يمض وقت طويل قبل أن يغشيني النوم، فلما نهضت لم أدر لوهلة أين أنا، فنهضت من رقدتي وجلست منتصبًا ونظرت حولي، شاعرًا بشيء من الخوف، ثم تذكرت أين أنا. بدا النهر ممتدًّا أميالًا بعيدة، وسطع ضوء القمر بقوة حتى إنه أمكنني إحصاء أحطاب الأشجار السوداء التي حملها الماء. كان كل شيء ساكنًا تمامًا. بدا الوقت متأخرًا، وتجلى هذا في رائحة النسيم، أتفهم مقصدي؟ فالأمر أكبر من أن تصفه كلمات.

تثاءبت وتمددت وكدت أن أحل القارب وأبدأ في التجديف به لكنني عندئذ سمعت صوتًا بالماء، فأرهفت السمع فلم ألبث أن تبينته. كان ذاك صوت مجاديف تتحرك في الماء؛ شق صوتها الخافت الرتيب سكون الليل. اختلست نظرة من بين أغصان أشجار الصفصاف فرأيت قاربًا صغيرًا على مسافة بعيدة بالماء، لم أستطع أن أتبين عدد راكبيه، ظل يقترب إلى أن وجدت أن به رجلًا واحدًا. حسبته أبي، مع أنني لم أكن أتوقع هذا.

سرعان ما أصبح الراكب شديد القرب مني بدرجة تمكنني أن أمد ذراعي وألمسه. كان كما هو متوقع أبي.

من ثم لم أضيع أي وقت؛ وفي غضون دقيقة كنت أسير بالقارب بهدوء مع ماء النهر. ابتعدت بضعة أميال، ثم اتجهت إلى وسط النهر. لن يمضي وقت طويل قبل أن أمر بعبارة ترسو قد يراني من على متنها إن اقتربت جدًّا، فشققت طريقي بين الأخشاب الطافية على وجه الماء ثم تمددت على أرض القارب لئلا يراني أحد، وتركت القارب يطفو.

تمددت واسترحت وقتًا طويلًا وأنا أنظر إلى السماء الصافية من الغيوم التي تبدو بعيدة جدًّا عندما تتمدد على ظهرك تحت ضوء القمر، لم أعلم ذلك من قبل. بإمكانك أيضًا أن تسمع الأصوات على ظهر الماء من مكان بعيد جدًّا؛ فقد تنامى إلى مسامعي أصوات أناس يتحدثون على العبارة الراسية، وسمعت كل كلمة مما يقولون؛ قال أحدهم إن النهار في هذا الوقت يطول فيما يقصر الليل، فقال آخر إن اليوم لم يكن قصيرًا، فضحكوا، وسمعت رجلًا منهم يقول إن الساعة الثالثة صباحًا تقريبًا، بعدئذ تباعدت أصواتهم أكثر فأكثر إلى أن صرت غير قادر على تمييز كلماتهم، لكن أمكنني سماع تمتماتهم بغير وضوح، وضحكاتهم بين الحين والآخر إلا أنها بدت قادمة من مكان بعيد.

مر بعض الوقت، ونهضت من رقدتي وجلست منتصبًا، فوجدت أمامي جزيرة جاكسون، تكسوها الأشجار وتبدو شاسعة، مظلمة، ساكنة، وكأنها زورق بخاري بلا أضواء.

لم يستغرق الذهاب إلى هناك وقتًا طويلًا؛ جدفت بالقارب إلى موضع من ضفة النهر كنت أعرفه، واختبأت بين أشجار الصفصاف، فلما انتهيت لم يكن بمقدور أحد أن يرى الزورق.

قصدت الجزيرة وجلست على قطعة خشب في مقدمتها، ثم تطلعت إلى النهر الكبير والخشب الذي يطفو به. رأيت ثلاثة أو أربعة أضواء تلتمع بالبلدة على مسافة بضعة أميال ودنا طوف خشبي كبير على بعد ميل أعلى النهر في منتصفه مصباح. شاهدته وهو يقترب ببطء، فلما اقترب سمعت رجلًا يقول: «طوف هناك! اتجهوا إلى الميمنة.» سمعته بوضوح وكأنه كان يقف إلى جانبي.

كانت السماء قد شقها القليل من الضوء بحلول ذلك الوقت، فقصدت غابة الجزيرة وتمددت بها لأنام قليلًا قبل أن أفطر.

الفصل الخامس

نار من مخيم

تكاسلت صباح اليوم التالي ولم أرد أن أنهض لطهو الإفطار، فغفوت ثانية لكنني عندئذ سمعت صوت دوي مدفع مكتوم قادم من أعلى النهر. نظرت من فتحة بين الأشجار فرأيت الكثير من الدخان فوق الماء، ينبعث من نقطة بعيدة بأعلى النهر بالقرب من العبارة الراسية التي امتلأت بحشد من الناس، فأدركت ما يجري. دوى صوت «بوم!» مجددًا، ثم رأيت الدخان الأبيض ينبعث من جانب العبارة؛ كان هؤلاء القوم يطلقون النار من مدفع فوق الماء محاولين أن يجعلوا جثتي تطفو فوق سطح الماء.

طفت العبارة مع تيار الماء ولم يمض وقت طويل قبل أن أرى من على متنها: والدي، والقاضي ثاتشر، وجو هاربر وتوم سوير، وعمته العجوز بولي، وسيد وآخرون كثيرون. كان الجميع يتحدثون عن جريمة القتل.

سرعان ما مرتْ عبارتهم بي وابتعدتْ عن مرمى بصري وهي تدور حول الجزيرة. أمكنني بين الحين والآخر سماع دوي المدفع الذي أخذ صوته يبتعد أكثر فأكثر إلى أن صرت عاجزًا عن سماعه. ساءني أنني كذبت عليهم هكذا، لكنني لم أدر ما الذي كان بوسعي فعله غير هذا؛ لم أرد أن يعثر علي أبي، ولم أرد أن أعود إلى حياتي القديمة مع الأرملة دوجلاس.

تأكدت من أن أموري تسير على ما يرام لما لم يأت أحد آخر للبحث عني، فأخرجت أغراضي من القارب ونصبت مخيمًا جميلًا في الغابة كثيفة الأشجار؛ فصنعت ما يشبه الخيمة من بطانياتي لأضع تحتها أغراضي لئلا يصل إليها المطر، وصدت سمكة سلور، وقرابة مغرب الشمس أشعلت نار مخيمي وتناولت العشاء.

عندما حل الظلام، جلست بالقرب من النار شاعرًا بالسعادة، لكن قبل أن يمضي وقت طويل شعرت بالوحدة نوعًا ما، فجلست على ضفة النهر وأصغيت إلى صوت جريان

الماء، وعددت النجوم وقطع الخشب الطافية على الماء، ثم خلدت إلى النوم، فليس هناك طريقة أسهل منه لتشعر بأنك أفضل حالًا عندما ينتابك الشعور بالوحدة؛ فسرعان ما تنسى هذا الشعور.

ظلت تلك حالي ثلاثة أيام وليال، كان كل يوم فيها كسابقه، بعدها ذهبت لتقصي الجزيرة. شعرت بأنها بأسرها ملكي، وأردت أن أعرف كل شيء عنها. فعثرت على الكثير من الفراولة، وعنب الصيف الأخضر، والتوت الأخضر، وثمر العليق الذي كان قد بدأ لتوه في الإزهار، وظننت أن هذه الثمار ستفيدني.

كدت أيضًا أن أصطاد ثعبانًا؛ ركضت خلفه عندما وطئت قدمي فجأة رماد نيران كان الدخان لا يزال ينبعث منه. شخص آخر كان على جزيرتي!

قفز قلبي بين ضلوعه. ولم أرد المكوث أكثر في تلك النقطة لتفقدها، بل عدت خلسة على أطراف أصابعي بأقصى سرعة ممكنة، وتوقفت من حين لآخر وأرهفت السمع، إلا أنني كنت ألهث بشدة حتى إنني لم أستطع سماع أي صوت آخر سوى صوت لهاثي.

عندما عدت إلى مخيمي، لم أجد في نفسي الكثير من الشجاعة، وحدثتني نفسي بأنني لا أملك وقتًا للعبث، فجمعت كل أغراضي وأطفأت نار مخيمي، ونثرت رمادها في أرجاء المكان ليبدو وكأنه رماد لمخيم قديم من العام الماضي، ثم تسلقت شجرة.

ظللت فوق الشجرة ساعتين تقريبًا، لكنني لم أر أو أسمع خلالهما شيئًا. هُيأ لي بضع مرات أنني أسمع وأرى شيئًا قادمًا، ولما لم يكن بإمكاني أن أظل على الشجرة إلى الأبد، هبطتها آخر الأمر ومكثت في الغابة كثيفة الأشجار، وظللت يقظًا طوال الوقت. لم يسعني عندئذ إلا أكل ثمار العليق وما تبقى من إفطاري.

بحلول المساء شعرت بالجوع الشديد، فلما حل الظلام وأصبح الوقت مناسبًا، نقلت قاربي وجدفت به عبر النهر وقصدت الغابة وطهوت عشائي وكدت أن أقرر أن أمكث هناك طوال الليل لولا أنني سمعت صوت جياد قادمة، ثم أصوات أشخاص، فأعدت كل شيء إلى القارب بأقصى سرعة، ثم تسللت بين أشجار الغابة لأرى ما يمكنني اكتشافه، وقبل أن أوغل سمعت رجلًا يتحدث قائلًا: «علينا أن نخيم هنا الليلة إن أمكننا أن نجد مكانًا لذلك، فالجياد متعبة.»

فلم أمكث لحظة، دفعت القارب إلى النهر وجدفت مبتعدًا واختبأت مجددًا على الجزيرة حيث اختبأت من قبل، وقررت أن أنام في القارب.

لم أنم كثيرًا، فلم يكن باستطاعتي هذا. حسبت في كل مرة استيقظت فيها أن شخصًا ما قد اكتشفني. في نهاية الأمر حدثت نفسي بأنني لا أستطيع أن أحيا على

هذا النحو، فعزمت على اكتشاف من معي على هذه الجزيرة بطريقة أو بأخرى، بعدها شعرت على الفور بأنني أفضل حالًا.

تفقدت صباحًا الجزيرة أكثر، فلمحت نيرانًا بين بعض الأشجار، فاتجهت إليها ببطء وحذر، وفي وقت قصير وجدت نفسي على مسافة كافية لأن أرى رجلًا ممددًا على الأرض تغطيه بطانية، تثاءب وتمطط، وهو يزيل عنه البطانية.

كان هذا جيم! كنت سعيدًا لرؤيته بلا شك، فقلت: «مرحبًا يا جيم.» وغادرت مخبأي.

فقفز وحدق بي والخوف يطل من عينيه، ثم جثا على ركبتيه وضم كلتا يديه وقال: «لا تؤذني! لم أؤذ شبحًا قط. لطالما أعجبني الموتى وفعلت كل ما بوسعي من أجلهم. عليك أن تعود إلى النهر، إلى حيث تنتمي. لا تؤذ جيم العجوز، فلطالما كنت صديقك.»

لم يستغرق إفهامه أنني لست ميتًا ولا شبحًا وقتًا طويلًا. شعرت بسعادة شديدة لرؤيته، إذ لم أعد وحيدًا، وكنت متأكدًا من أنه لن يخبر أحدًا بمكاني.

سألته: «كم مضى عليك هنا؟»

فقال: «أتيت إلى هنا في الليلة التالية لمقتلك، أو الليلة التي حسب فيها الناس أنك قد قتلت.»

قصدنا المكان الذي خبأت فيه القارب، فأحضرت منه بعض الطعام فيما أوقد هو النار، ولما صار الإفطار جاهزًا، تمددنا على العشب وأكلنا. كان جيم يتضور جوعًا، وبعدما أتخمنا الطعام تمدد كل منا على ظهره وشعرنا بالخمول. لم يمض وقت طويل قبل أن يسأل جيم: «لكن مهلًا، من الذي قُتل في الكوخ إن لم يكن هذا أنت؟»

فأخبرته القصة بأسرها؛ عن دم الخنزير والآثار المصطنعة وكل شيء، فقال إنها حيلة ذكية، وإن توم سوير لا يستطيع أن يبتكر خطة أفضل، ثم سألته أنا: «كيف أتيت إلى هنا يا جيم؟»

فبدا عليه الارتباك الشديد، ولوهلة لم يقل أي شيء، ثم قال: «حسنًا، إليك الأمر: السيدة العجوز واتسن تسيء معاملتي أحيانًا، لكنها كانت على الدوام تقول إنها لن تبيعني لولاية نيو أورليانز، بعدئذ لاحظت في الآونة الأخيرة أن تاجر رقيق كان يأتي كثيرًا، فبدأت أشعر بالقلق، وفي وقت متأخر من ليلة ما تسللت إلى باب المنزل فسمعت السيدة واتسن تخبر الأرملة دوجلاس بأنها تنوي بيعي في ولاية نيو أورليانز؛ قالت إنها لا تود ذلك، لكن بإمكانها أن تحصل على ثمانمائة دولار مقابل هذا، وهو مبلغ كبير لا

تستطيع مقاومته. حاولت الأرملة دوجلاس إقناعها بالعدول عن هذا، لكنني لم أنتظر سماع الباقي، وفررت بسرعة شديدة.»

الفصل السادس

منزل في النهر

ظلت مياه النهر ترتفع عشرة أيام أو اثني عشر يومًا، إلى أن فاضت آخر الأمر فوق ضفتيه. بلغ ارتفاع الماء ثلاثة أو أربعة أقدام بالجزيرة، فجدفنا نهارًا في كافة أرجاء الجزيرة في القارب، حيث كان جوف غابة الجزيرة مظلمًا باردًا، حتى إن كانت الشمس حارقة.

أتى منزل مائل من طابقين طافيًا في النهر في إحدى الليالي قبل طلوع ضوء النهار بوقت قصير. جدفنا إليه وتسلقنا إلى نافذة بطابقه العلوي ودخلنا منها. كان جسم ما ممددًا على الأرض في ركن الغرفة، يبدو وكأنه لرجل، فقال جيم: «مرحبًا يا هذا.»

لكن الجسد لم يتحرك قيد أنملة، فصحت أنا، بعدها قال جيم: «هذا الرجل ليس نائمًا، إنه ميت. ابق مكانك، سأذهب لأرى.»

فذهب ونظر إلى الرجل ثم قال: «إنه رجل ميت بالفعل. لقد تلقي رصاصًا في ظهره. يبدو أنه ميت منذ يومين أو ثلاثة أيام. تعال يا هاك، لكن لا تنظر إلى وجهه؛ فهو مخيف جدًّا.»

فلم أنظر إلى الرجل على الإطلاق. ألقى جيم خرقًا قديمة على وجهه ليتأكد من أنني لن أراه، مع أنه لم يكن بحاجة لفعل ذلك، فأنا لم أرد هذا، وحملنا الأشياء التي عثرنا عليها بالمنزل إلى القارب وجدفنا عائدين أدراجنا.

أردت بعد الإفطار أن أتحدث عن الرجل الميت وأخمن الكيفية التي قتل بها، لكن جيم لم يرد ذلك؛ قال إن هذا سيجلب الحظ السيئ، وإن الرجل الميت قد يعود إلى الحياة لمطاردتنا، فلم أتفوه بشيء آخر عن الأمر، لكنني تمنيت أن أعرف من الذي أرداه قتيلًا، وأن أعرف سبب قيامه بذلك.

أخبرت جيم صباح اليوم التالي أنني بدأت أشعر بالملل وبأن الوقت يمضي ببطء؛ أردت القيام بشيء جديد، فقررت أن أعبر النهر لأستطلع ما يجري. أعجبت تلك الفكرة جيم، لكنه رأى أن علي الذهاب إلى هناك في الظلام وأن أكون شديد الحذر، ثم قلب الأمر في رأسه وقال إن علي أن أرتدي بعضًا من الملابس التي عثرنا عليها في المنزل وأن أرتدي ملابس فتاة، بذا لن يظن أحد أن الفتاة هي في الواقع أنا.

جدفت عبر النهر وتحدثت إلى سيدة عجوز كشفت تنكري على الفور، فشعرت بأنني أحمق، لكنها فطنت إلى أنني صبي وحسب، ولم تعلم أنني هاكلبيري فين. لا شك أنها حسبت أنني هارب. علمت منها أن الناس يحسبون بالفعل أنني مت، لكنها قالت أيضًا إنهم اعتقدوا أن جيم هو من قتلني، فقد فر — على حد قولها — في الليلة نفسها التي اختفيت فيها، من ثم رجح أنه القاتل.

الأدهى أن العجوز قالت أيضًا إن جزيرة جاكسون سيجري تمشيطها الليلة، وإنها موقنة من أنه سيتم الإمساك بالقاتل، فاختلقت على الفور عذرًا للمغادرة وعدت أدراجي إلى المخيم، فلما بلغته، كان جيم نائمًا، فقلت له: «استيقظ يا جيم! ما من وقت نضيعه. إنهم في إثرنا.»

فلم يسألني أي أسئلة، بل إنه في الواقع لم يتحدث، لكن بدا من حركاته أنه يشعر بالخوف. حملنا كل شيء إلى طوفنا في غضون نصف ساعة ثم ركبت القارب وتلفت حولي، فلم أر أحدًا قادمًا، فربطنا القارب بالطوف ونزلنا بكليهما النهر وبدأنا في المغادرة. لم ينطق أحدنا بكلمة.

الفصل السابع

على الحطام

طفونا مع ماء النهر عدة أيام، ثم هبت عاصفة هائلة وهطل المطر كثيفًا، ولمع البرق فأمكننا رؤية باخرة تحطمت على بعض الصخور أمامنا، حملنا الماء نحوها ببطء.

قلت لجيم: «لنهبط على هذه السفينة يا جيم.»

لكنه عارض هذا تمامًا في البداية: «لا أود أن أعبث على حطام سفن غارقة. نحن بخير هنا، وعلينا أن نترك تلك الباخرة وشأنها. وعلى أي حال يرجح أن على متنها من يحرسها.»

– «ليس هناك ما يجب حراسته على متنها يا جيم. يبدو أنها على وشك أن تتصدع وتجرفها مياه النهر في أية لحظة، كما أننا قد نجد شيئًا في غرفة القبطان، فقباطنة البواخر يكونون على الدوام أثرياء. أتعتقد أن توم سوير كان سيدع أمرًا كهذا؟ بتاتًا. كان سيسمي الأمر مغامرة.»

تذمر جيم قليلًا، لكنه وافق في نهاية الأمر، وقال إن علينا ألا نتحدث كثيرًا إن صعدنا إلى متن السفينة، ثم أظهر البرق لنا الباخرة مجددًا في الوقت المناسب، فجدفنا نحوها وربطنا الطوف والقارب إلى جانبها.»

تسلقنا إلى متن السفينة في الظلام، ولم يمض وقت طويل قبل أن نكون أمام باب غرفة القبطان الذي كان مفتوحًا. أبصرنا في آخر الممر ضوءًا، وسمعنا في اللحظة نفسها أصواتًا!

قال جيم إنه يشعر بالخوف، وطلب مني المجيء معه، فوافقته، وكنت سأقصد الطوف، لولا أنني سمعت عندئذ صوتًا يقول: «آه، أرجوكم ألا تفعلوا هذا يا رجال. أقسم لكم أنني لن أشي بكم.»

فعلا صوت آخر بشدة قائلًا: «أنت تكذب يا تيرنر. لقد فعلت مثل هذا من قبل. أنت دائمًا تطلب أكثر من حصتك، وتحصل على مرادك أيضا لأنك تقسم أن تشي بنا إن لم تحصل عليه، لكنك هذه المرة تماديت في المزاح حول الأمر. أنت النذل الأكثر خسة وغدرًا في هذا البلد.»

كان جيم بحلول هذا الوقت قد قصد الطوف، لكن الفضول انتابني؛ قلت لنفسي إن توم سوير لم يكن ليتراجع الآن، من ثم لم أكن أنا أيضًا لأفعل ذلك، فزحفت متسللًا إلى أن صرت داخل الغرفة بجوار الرجال. رأيت رجلًا مقيدًا يرقد على الأرض وقد وقف رجلان يعلوانه بقامتيهما.

قال الرجل الذي يرقد على الأرض: «آه، أرجوك ألا تفعل هذا يا بيل. لن أشي بكم أبدًا.»

أخذ الرجلان يسيران إلى النقطة التي كنت فيها، فانتقلت من مكاني بأقصى سرعة، لكنني لم أجد فسحة كافية. دخلا الغرفة التي اختبأت فيها، فصرت محاصرًا. ندمت عندئذ على فضولي الشديد، لكن لحسن الحظ أنهما لم يبصراني، بل تحدثا عن الرجل الذي يرقد على الأرض.

قال أحدهما: «لقد قال إنه سيشي بنا، وهذا ما سيفعله. لن يختلف شيء إن أطلقنا سراحه الآن، سينقلب علينا.»

فقال الآخر: «أعتقد أنك محق يا بيل، إليك ما أفكر به: سنتفقد هذه السفينة بحثًا عن كل ما بإمكاننا العثور عليه، ثم نتركه هنا ونتجه إلى الشاطئ. لن تصمد هذه السفينة أكثر من ساعتين قبل أن تتصدع وتنجرف مع مياه النهر. لن يجده أحد قط.»

ما إن تركا الغرفة، حتى غادرتها، كنت أتصبب عرقًا من الخوف. همست في الظلام بالخارج: «جيم»، كان بجانبي فأجاب ندائي على الفور، فقلت: «أسرع يا جيم، ليس هناك وقت. ثمة عصابة من القتلة على متن هذه الباخرة. إن لم نتخلص من قاربهم كي لا يفروا، فسيقتلون شخصًا ما، لكن إن أمكننا العثور على قاربهم، فسنحتجزهم حتى يأتي المأمور ويقبض عليهم. سأبحث عن القارب في هذا الجانب. ابحث أنت عنه في الجانب الآخر. ابدأ البحث من النقطة التي عقلنا عندها طوفنا و...»

فقال جيم: «آه، لا! ليس هناك طوف. لقد انحل الطوف وصرنا محتجزين هنا!»

الفصل الثامن

مصير الحطام

احتبست أنفاسي وكاد أن يغشى علي. كنت محتجزًا على حطام سفينة مع هذه العصابة! لكن لم يكن هناك وقت للشعور بالخوف. اضطررنا إلى البحث عن قاربهم من أجلنا نحن، فبحثنا كثيرًا إلى أن عثرنا عليه آخر الأمر. كدنا نصعد على متنه لكن عندئذ انفتح باب الغرفة التي حوت الرجلين، وتطلع أحدهما إلى الخارج. كان يقف على بعد قدمين فقط مني، لكنه لم يبصرني، بعدها عاد إلى الغرفة ليتحدث مع الرجل الآخر، فصعدت إلى متن القارب وجيم خلفي مباشرة وقطعت بسكيني الحبل الذي يصل القارب بالسفينة وابتعدنا.

لم نلمس المجاديف ولم ننبس بكلمة، بل بالكاد تنفسنا. حملنا الماء في صمت بعيدًا عن الحطام، وفي غضون وقت قصير صرنا على مسافة بعيدة جدًّا عنه، إلى حد أن الظلام غمرها تمامًا وصرنا في مأمن وتأكدنا من ذلك.

عندما ابتعدنا رأينا مصباح الباخرة يومض كشعلة صغيرة عند باب غرفة الرجلين، فعلمنا أن الوغدين قد فطنا إلى أنهما يفتقدان قاربهما، وأنهما بدءا يدركان أنهما في مأزق كشريكهما بالضبط.

بدأت أشعر بالقلق حيال الرجلين، فقلت لجيم: «سأفكر في قصة أقنع بها شخصًا ما بأن يعود من أجل تلك العصابة لينتشلها من حطام الباخرة.»

لم يمض وقت طويل قبل أن نجد طوفنا. شعرنا بالسعادة الغامرة لأننا كنا على متنه من جديد. جمعنا كل الأشياء التي كانت على قارب العصابة وحملناها إليه، وطفا جيم به على بعد مسافة قصيرة، وأضاء مصباحًا لأتمكن لاحقًا من العثور عليه.

أخذت القارب وجدفت به إلى الشاطئ، فلما بلغته وجدت حارسًا نائمًا إلى جانب قارب عبور، فأخبرته عن العصابة التي على متن الحطام، لكن كان الأوان قد فات، فبعد

أن تركني عثرت على جيم مجددًا ورأينا الحطام نفسه وقد انطفأ الضوء به وغشيه الظلام، وهو ينجرف مع مياه النهر! فسرت قشعريرة باردة في جسدي. كان قد غاص إلى عمق كبير في الماء، ولم أستطع رؤية أي شخص على متنه.

خبأت أنا وجيم الطوف والقارب قبل طلوع الفجر ثم تمددنا واستغرقنا في نوم عميق كالموتى.

عندما نهضنا تفحصنا الأشياء التي سرقتها العصابة، فعثرنا على الكثير من الملابس والكتب وأشياء أخرى؛ لم نكن قط بهذا الثراء. أمضينا عصر هذا اليوم في تبادل أطراف الحديث، وقرأت أنا من الكتب، وقصصت على جيم ما وقع على حطام السفينة، وأخبرته بأن هذه القصص تعد مغامرات، فقال إنه لا يريد المزيد من هذه المغامرات.

قرأت له عن الملوك والنبلاء والإيرلات الذين وصف الكتاب ملبسهم وحديثهم ومناداة بعضهم بعضًا بجلالتك وسموك وعظمتك بدلًا من سيدي، بعضهم تحدث أيضًا بالفرنسية.

خمننا أن الوصول إلى مدينة كايرو التي تقع جنوب مدينة إلينوي حيث يقطع نهر أوهايو المسار سيستغرق ثلاث ليال. نستطيع من هناك أن نبلغ الولايات التي انتفت منها العبودية، حيث سننأى بأنفسنا عن المشكلات. كان جيم قد افتقد بشدة أطفاله وقال إنه سيطلب من شخص ما إحضارهم ما إن يصل إلى هناك. كنت أعلم أن كلًا منا سيقع في ورطة إن ألقي القبض علينا قبل أن نصل إلى هناك؛ سيعاقب جيم على فراره، وأنا قد أقع في مأزق لمساعدته.

في الليلة التالية ضللنا الطريق وسط بعض الضباب وانفصل كل منا عن الآخر. كنت في القارب، فيما كان جيم على الطوف. استغرقنا وقتًا طويلًا في عثور كل منا على الآخر مجددًا، بعدها اكتشفنا أن الماء ساقنا لنجاوز مدينة كايرو، فما كان أمامنا إلا أن نعود بالقارب.

نمنا طيلة النهار بين شجيرات القطن كي نعاود التجديف ليلًا، لكننا لما عدنا إلى الطوف بعد حلول الظلام، كان القارب قد اختفى! كنا بحلول هذا الوقت قد واجهنا حظًّا عاثرًا العديد من المرات، مما أشعرنا بالاستياء الشديد.

مر بعض الوقت ولم ننبس بكلمة؛ فلم يكن لدينا ما نقوله، بعدها قررنا أن نسير بالطوف مع ماء النهر إلى أن تسنح لنا فرصة شراء قارب، عندها سنحاول أن نجدف عائدين. لم نرد أن نأخذ قاربًا دون أن نعيده، كما كان يفعل والدي، فقد يؤدي هذا إلى مطاردتنا.

من ثم انطلقنا بعد حلول الظلام بطوفنا، لكننا واجهنا المزيد من الحظ العاثر. اشتدت ظلمة الليل وتلبدت السماء بالغيوم، وهذا أسوأ طقس قد يجابهه المرء بعد الضباب؛ إذ لا يسعك أن تتبين شكل النهر أو الرؤية لمسافة بعيدة. تأخر الوقت وساد الهدوء، لكن عندئذ قدمت باخرة، فأشعلنا مصباحنا وبدا لنا أن من عليها سيبصروننا.

أمكننا سماعها وهي تشق الماء بثقل، لكننا لم نستطع رؤيتها جيدًا إلا عندما اقتربت. اتجهت نحونا مباشرة، فكثيرًا ما يفعل طاقم السفن هذا، ويحاول أن يرى إلى أي مدى يستطيع الاقتراب دون ملامسة المركبات الأخرى، بعدها يطل قبطان السفينة برأسه ويضحك ويحسب أنه شديد الذكاء. حسنًا، إنها آتية، ويبدو أنها تنحرف عن مسارها قليلًا. كانت هائلة الحجم، تسير على عجل، بدت وكأنها سحابة سوداء ضخمة حولها صفوف من حشرات سراج الليل المضيئة. سمعنا شخصًا يناديا وبعض الأجراس التي تدق لإيقاف المحركات، والكثير من السباب وصفير البخار. قفز جيم من على متن القارب من ناحية وسقطت أنا من الناحية الأخرى، وأتت السفينة على القارب محطمة إياه.

غصت وحاولت العثور على قاع النهر. كانت سفينة ارتفاعها ثلاثون قدمًا ستمر من فوقي! وقد أردت أن تفصلني عنها مسافة كافية. اعتدت أن أمكث تحت الماء دقيقة، لكنني أعتقد أنني هذه المرة مكثت مدة تناهز الدقيقة ونصف الدقيقة، بعدها صعدت بسرعة إلى السطح حتى بلغ الماء إبطي إذ كادت رئتاي تنفجران، وأخرجت الماء من أنفي ولهثت قليلًا. كان صوت الموج بالطبع هادرًا، وقد أوقدت الباخرة محركاتها بعد عشر ثوان من إيقافها — فمن على متن هذه البواخر لا يعبئون كثيرًا بمن يركبون طوفًا — وأخذت تشق الماء محدثة اضطرابًا به حتى غابت عن مرمى البصر في الجو الملبد بالغيوم، مع أنني استطعت سماعها.

ناديت جيم عشرات المرات، لكنني لم أجد جوابًا، فجذبت في آخر الأمر لوحًا خشبيًّا لامسني وأنا أحرك ساقي لأطفو على وجه الماء، وسبحت بعزم نحو الشاطئ دافعًا إياه أمامي.

استغرق هذا وقتًا طويلًا، لكنني بلغت آخر الأمر الشاطئ آمنا. لم أستطع الرؤية لمسافة بعيدة، فأخذت أسير ببطء على أرض وعرة وقتًا طويلًا حتى عثرت على بيت عتيق الطراز من أحطاب الأشجار، كنت سأمر به، لكن قبل أن أفعل قفز الكثير من الكلاب منه وأخذوا يعوون وينبحون في وجهي.

بعد دقيقة صاح شخص ما من نافذة المنزل وسألني عن اسمي.

فقلت: «جورج جاكسون يا سيدي. لست إلا صبيًّا.»

فقال الرجل: «اسمع. ليس عليك أن تخاف إن كنت تقول الحقيقة. لن يؤذيك أحد، لكن لا تحاول أن تتحرك من مكانك، قف حيث أنت، ليذهب بعضكم لإحضار بوب وتوم. هل معك أحد يا جورج جاكسون؟»

– «لا يا سيدي.»

– «حسنًا يا جورج جاكسون هل تعرف آل شيبردسون.»

– «لا يا سيدي، لم أسمع بهم قط.»

– «ربما، تقدم يا جورج جاكسون، واحرص على ألا تفعل هذا بسرعة. تقدم ببطء شديد. افتح الباب بنفسك لكن بالقدر الذي يسمح لك بالدخول وحسب. أتفهمني؟»

لم أسرع، إذ لم يكن باستطاعتي هذا حتى لو وددت. سمعتهم يحررون قفل الباب ويزيلون عنه القضبان ويفتحون رتاجه، فدفعته قليلًا وتطلعت إلى المكان من الداخل.

كانت هناك شمعة على أرض الغرفة وقد وقف الجميع يتطلعون إلي، فتطلعت بدوري إليهم. أؤكد لكم أن الرجال ضخام الجثة الذين حدقوا بي أشعروني بالتوتر. أكبرهم كان رجلًا أشيب الشعر في الستين تقريبًا من العمر، أما الاثنان الآخران فكانا في الثلاثين من العمر أو أكثر. بدوا جميعًا حسني المظهر وجميلي الطلعة، وخلفهم وقفت سيدة لطيفة شمطاء، وخلفها شابتان.

ما إن دخلت حتى أغلق السيد العجوز الباب ووضع عليه القضبان وأغلق رتاجه وأمر فتيته بالدخول، فتأملوني جيدًا ثم قالوا: «إنه ليس من آل شيبردسون. إنه لا يبدو كذلك على الإطلاق.»

فقال العجوز إنه يأمل ألا أمانع تفتيشي بحثًا عن أسلحة، لكنه لم يقصد أذيتي. كان هذا للتأكد وحسب، وطلب مني أن أطمئن وأشعر وكأنني في منزلي، وقال إن علي أن أخبره بكل شيء عن نفسي، لكن السيدة العجوز قالت: «بوركت يا سول، المسكين مبلل تمامًا، ألا تعتقد أنه جائع؟»

فأجابها العجوز: «أنت محقة يا رايتشل. نسيت هذا.»

فقالت العجوز: «بيتسي أحضري له ما يأكله بأقصى سرعة. المسكين! باك اصعد الدرج الأعلى واحضر بعض الملابس لإعطائها له.»

بدا باك في عمري — في الثالثة أو الرابعة عشرة من العمر أو نحو ذلك — مع أنه كان أكبر حجمًا قليلًا مني.

اختلقت قصة وأخبرتهم بأنني وقعت من على ظهر باخرة وأنني يتيم، فأخبروني أن بإمكاني أن أسكن في منزلهم بقدر ما أريد، ثم خلد الجميع إلى النوم حتى قرابة طلوع النهار. عندما استيقظت صباحًا نسيت الاسم الذي أخبرتهم بأنه اسمي — تبًّا لكل هذا! فتمددت في مكاني قرابة ساعة محاولًا تذكره ثم سألت باك عندما استيقظ إن كان يستطيع التهجي.

فقلت: «أراهن أنك لا تستطيع هجاء اسمي.»

فقال: «ج، و، ر، ج، ا، ك، س، و، ن. هاك.»

فقلت له: «لقد نجحت. لم أحسب أنك تستطيع هذا.»

وحرصت على أن أتذكر هجاء اسمي تحسبًا لأن يسألني عنه أحد. علمت فيما بعد أن هذه العائلة اسمها عائلة جرينجرفورد.

كان هناك الكولونيل جرينجرفورد وهو رجل بالغ الطول والرشاقة، عيناه شديدتا السواد، غائرتان حتى إنهما تبدوان وكأنهما تطلان من كهف، أما شعره فكان أسود منسدلًا يتدلى إلى كتفيه.

حمل بيده عصا خشبية ذات رأس فضي، وقد كان طيبًا للغاية؛ بإمكانك أن تشعر بهذا. ابتسمَ في بعض الأحيان، وكان هذا مشهدًا جميلًا، لكن إن بدا عليه الغضب، فستشعر بأنك تود أن تفر أولًا ثم تعرف ما الأمر فيما بعد. لم يكن عليه حتى أن يخبر أي شخص بأن يحسن السلوك، كان الجميع يحسنون التصرف في حضرته.

بوب كان الابن الأكبر، يليه توم، وكلاهما كان طويلًا جميل الطلعة، عريض المنكبين جدًّا، أسمر الوجه، ذا شعر أسود طويل وعينين سوداوين، ارتديا من رأسيهما إلى قدميهما ملابس من الكتان الأبيض — شأنهما شأن الكولونيل العجوز — وقبعة بنما خفيفة من القش.

هناك أيضًا الآنسة تشارلوت التي كانت في الخامسة والعشرين من العمر، واتسمت بالطول والأنفة. كانت جميلة، طيبة القلب، لكن قد يعتريها الغضب كأبيها بالضبط، أختها الآنسة صوفيا اتسمت بدورها بالجمال، لكن جمالها كان من طراز مختلف؛ كانت شديدة الرقة واللطف، ولم تكن إلا في العشرين من العمر.

أقامت عائلة أخرى بالجوار تعرف بعائلة شيبردسون، وهي عائلة تتمتع بثراء وعظمة عائلة جرينجرفورد. علمت من باك أن العائلتين تتنازعان منذ سنوات، ولم يذكر أحد كيف بدأ النزاع، لكن أفراد العائلتين كانوا يبدءون في إطلاق الرصاص حالما يلتقيان.

الفصل التاسع

نزاع الأسرتين

قصدنا جميعًا يوم الأحد التالي الكنيسة. طلبت مني الآنسة صوفيا بعد العشاء مساء ذلك اليوم أن أحضر لها كتابها المقدس من الكنيسة لأنها نسته هناك، فقصدت الكنيسة وعثرت عليه. استغربت توترها لذلك، فلما هززت الكتاب سقطت منه ورقة كتب عليها «الثانية والنصف».

ولما عدت إلى البيت صحبتني الآنسة صوفيا إلى غرفتها ونظرت إلى الكتاب، فلما عَثَرَت على الورقة وقرأتها سألتني إن كنت قد قرأتها، فكذبت وزعمت أنني لا أستطيع القراءة، فاحتضنتني وطلبت مني أن أخرج للعب.

كان أحد العبيد بالخارج يتعقبني، فلما سألته عن السبب أخبرني بأن هناك شيئًا مهمًّا عليه أن يريني إياه، فتبعته إلى مستنقع يبعد عن المنزل، فأشار لي إلى نقطة بعيدة طلب مني أن أتفقدها ثم غادر.

وجدت باحة صغيرة مفتوحة بحجم غرفة نوم كبيرة تتدلى من كل أنحائها عناقيد العنب تمدد بها رجل نائم، كان هذا جيم العجوز!

أيقظته، فسعد بشدة لرؤيتي حتى إنه كاد يبكي. قال إنه تبعني في الماء مساء اليوم الذي حيل فيه بينه وبيني، لكنه لم يستطع أن يناديني خشية أن يسمعه أحد ويمسك به.

فسألته: «لمَ لمْ تأت وتأخذني قبل الآن يا جيم؟»

فقال: «كنت منشغلًا بجمع بعض المعدات وإصلاح الطوف.»

– «أي طوف يا جيم؟»

– «طوفنا القديم.»

– «أتعني أنه لم يتحطم تمامًا؟»

– «لا بل تحطم إلى حد كبير، لكنني استطعت إصلاحه إلى درجة جيدة، ولما وجدتك آمنًا في المنزل القديم، صادقت بعض عبيد آل جرينجرفورد، وهم خبئوني هنا.»

فطلبت من جيم أن يلزم مكانه ثم عدت أدراجي إلى المنزل.

لا أود أن أتحدث كثيرًا عن اليوم التالي. أعتقد أنني أستطيع اختصاره. استيقظت مبكرًا ولاحظت أن المكان يخيم عليه الهدوء الشديد، وبدا أنه خلا من الحركة، الأمر الذي كان غريبًا. لم يكن باك أو أي شخص بالمنزل، فخرجت وسألت أحد العبيد عن الأمر، فأخبرني أن الآنسة صوفيا قد فرت مع فرد من آل شيبردسون. كان كل منهما مغرم بالآخر! من ثم ذهب أفراد كلا الأسرتين لقتال بعضهم بعضًا.

اتجهت نحو النهر ولم ألبث أن سمعت صوت طلقات بنادق، فتسلقت إحدى الأشجار وشاهدت المعركة. كانت مخيفة. تقاتلت الأسرتان قتالًا شرسًا. وجدت باك فأخبرني عن فرار الآنسة صوفيا مع الشاب هارني شيبردسون. قال باك إنهما عبرا النهر بأمان، فسعدت بهذا، لكن باك شعر بالسخط لأنه لم يطلق النار من قبل على هارني. لم أسمع قط بشيء كهذا.

فجأة دوى صوت ثلاث أو أربع بنادق: «بوم! بوم! بوم!». قفز باك والفتية الذين معه إلى النهر وبدا أنهم أصيبوا من جراء ذلك، ولما أخذوا يسبحون مع ماء النهر ركض بعض الرجال على الضفة وهم يطلقون النار عليهم. أشعرني هذا بالغثيان الشديد حتى إنني كدت أسقطت من على الشجرة. لن أقص عليكم كل ما وقع بعد ذلك، فسأشعر بالغثيان مجددًا إن فعلت. تمنيت لو أنني لم آت قط إلى الشاطئ مساء ذلك اليوم لأرى هذه الأشياء، لن أنساها قط.

ظللت على الشجرة إلى أن بدأ الظلام يحل. خفت أن أنزل إلى الأرض، إذ تنامت إلى مسامعي في بعض الأحيان أصوات طلقات رصاص من بعيد بالغابة، ورأيت مرتين مجموعة من الرجال يمرون سريعًا حاملين بنادق، فاعتقدت أن المشكلة لا تزال قائمة. شعرت بالإحباط الشديد، فقررت ألا أقرب هذا المنزل مجددًا. ظننت أنني الملام نوعًا ما؛ إذ حسبت أن الورقة عنت أن الآنسة صوفيا كانت ستلقى هاري في مكان ما الساعة الثانية والنصف وتفر. كان علي أن أخبر أباها بأمر تلك الورقة، وبتصرفاتها الغريبة، ربما لم تكن تلك الفوضى الرهيبة لتقع.

عندما نزلت من على الشجرة، زحفت على ضفاف النهر وبكيت باك قليلًا، إذ كان لطيفًا للغاية معي، ثم حل الظلام. لم أقرب ذلك المنزل مجددًا أبدًا، بل شققت طريقي

وسط الغابة واتجهت إلى المستنقع، إلا أنني كنت خائفًا! أطلقت صرخةً، فقال صوت: «أهذا أنت؟»

كان هذا صوت جيم، لم أسمع بشيء قط أعذب من ذلك، فركضت على ضفاف النهر وصعدت على متن طوفنا. سعد جيم جدًّا لرؤيتي حتى إنه أمسك بي واحتضنني، ثم قال: «بوركت يا صغير. كنت موقنًا أنك لقيت حتفك مجددًا؛ جاءني العبيد قبل برهة. لقد حسبوا أنك أرديت قتيلًا بالرصاص. كم أنا سعيد بعودتك إليّ مجددًا!»

فقلت: «حسنًا، هذا رائع، لن يعثروا علي. سيحسبون أنني قد قتلت وطفوت مع ماء النهر. لا تضيع الوقت يا جيم. لنغادر الشاطئ ونتجه إلى مياه النهر الهائلة على جناح السرعة.»

سعدت بشدة للفرار من تلك المعركة، وسعد جيم بمغادرة المستنقع. قلنا إن الطوف هو أفضل سكن لنا على أي حال، فالأماكن الأخرى تبدو ضيقة وخانقة، أما الطوف فليس كذلك. يشعر المرء بالحرية والاطمئنان والراحة على الطوف.

الفصل العاشر

ملك ودوق

مرت ثلاثة أيام وليال هادئة، لطيفة، بلا مشكلات. كان النهر هائلًا، بلغ عرضه أحيانًا ميلًا ونصف ميل. ارتحلنا عبره ليلًا وخبأنا الطوف قبل بزوغ النهار، ثم كنا نسبح ونترقب ضوء النهار.

كنا نأخذ الطوف ما إن يحل الظلام إلى وسط النهر ونتركه يطفو إلى حيث يشاء تيار الماء، ثم نسترخي، ونترك أرجلنا تتدلى في الماء ونتحدث عن أي مما يطرأ من الأمور، وكنا على الدوام مجردين من الثياب، على الأقل في الأوقات التي سمح لنا فيها الباعوض بهذا.

الثياب الجديدة التي أعطتني إياها أسرة باك كانت جيدة إلى حد أنها لم تكن مريحة، فضلًا على أنني لم أحب ارتداء الثياب كثيرًا.

خلا النهر بأسره لنا أحيانًا لأوقات طويلة جدًّا، وأحيانًا أمكننا رؤية شعلة أو اثنتين من شمعة أو مصباح على طوف أو كوخ على مقربة من الشاطئ، وتنامى إلى أسماعنا بين الحين والآخر صوت كمان أو أغنية قادمة من مكان ما. الحياة على طوف جميلة. رقطت النجوم السماء، فكنا نستلقي على ظهرينا ونتأملها وحسب.

جدفت عكس تيار النهر صباح يوم ما لأرى إن كان بمقدوري جمع بعض ثمر العليق، لكن أثناء مروري بنقطة تقاطعت فيها مياه النهر مع رافد صغير، أتى رجلان يركضان مع تيار النهر بأقصى سرعتهما، فشعرت أنني هالك لا محالة؛ إذ كلما بدأت مطاردة شخص ما، شعرت بأنني أو جيم الشخص المطارد. كدت أن أجدف مبتعدًا، لكنهما كانا بحلول الوقت قد اقتربا بشدة مني ونادياني ورجياني أن أنقذهما، وقالا إنهما لم يقترفا ذنبًا، لكنهما مطاردان، وثمة رجال وكلاب قادمون.

فصعدا على متن الطوف وتنامت إلى أسماعنا في غضون دقائق صيحات مجموعة من الكلاب والرجال من مكان بعيد، فجدفت بين الأشجار واختبأنا منهم.

أحد هذين الشخصين كان في السبعين تقريبًا من العمر؛ كان أصلع الرأس ذا شارب رمادي اللون تمامًا، ارتدى قبعة بالية متهدلة وقميصًا أزرق ملطخًا بالشحم، وبنطالًا جينزًا ممزقًا حشا به رقبة حذائه الطويلة، أما الرجل الآخر فقد ناهز الثلاثين تقريبًا من العمر وارتدى الزي ذاته، وكلا الرجلين حمل خُرجًا ضخمًا.

بعد تناول الإفطار تحدثنا، أول ما اتضح هو أن هذين الرجلان لم يعرف أحدهما الآخر.

سأل الرجل الأصلع الرجل الآخر: «ما الذي أوقع بك في مشكلة؟»

فأجابه: «حسنًا، كنت أبيع أداة تنزع الصفرة عن الأسنان، وهي تنزعها بالفعل، لكنها تنزع معها ميناء الأسنان فقط، ثم مكثت هناك لليلة أخرى لم يكن من المفترض أن أمكثها. كنت بصدد الفرار لتوي عندما التقيتك في طريقي، فأخبرتني أنت بأنهم قادمون ورجوتني أن أساعدك على الفرار، فأخبرتك بأنني كنت أتوقع أنني سأقع في ورطة، وسأفر سريعًا معك، هذه هي القصة برمتها. ما هي قصتك؟»

فقال الأصلع: «حسنًا. أدرت أسبوعًا اجتماعات دينية صغيرة؛ أُحدِّث الأُسر عن السلوك الذي يجب أن يتبعوه، وأتقاضى نظير ذلك مبلغًا يصل إلى خمسة أو ستة دولارات في الليلة الواحدة — عشرة سنتات نظير الفرد — لكن دارت شائعات مساء الأمس بأنني أرتكب أفعالًا مشينة في الخفاء، وسمعت صباح اليوم أن القوم يجتمعون، وأنهم إن أمسكوا بي فسيلطخونني بالقطران ثم يكسونني بالريش، ثم سيضعونني فوق قضيب معدني ويتجولون بي في البلدة وأصبح مثارًا للسخرية.

قال الشاب: «أيها العجوز، أعتقد أننا نستطيع أن نشكل فريقًا معًا. ما رأيك؟»

– «أستطيع ذلك. ما هو مجال عملك الأساسي؟»

– «أنا عامل طباعة، لكنني في العادة أبيع بعض الأدوية أو أعمل ممثل مسرح. كثيرة هي الأعمال التي أستطيع أداءها، أعمل في أية مهنة نافعة.»

– «أنا بدوري مارست الطب في شبابي، كما أنني أجيد قراءة الطالع عندما يكون معي من يستطيع تقصي الحقائق لي، كما أجيد إلقاء الدروس الدينية.»

لم يتحدث أحد لبرهة، ثم تنهد الشاب وقال: «وا أسفاه.»

فسأله الأصلع: «علامَ تأسف؟»

فأجابه: «كم أعجب من أنني أعيش حياة كتلك، ومن أنني مرغم على تلك الرفقة ...» وأخذ يمسح طرف عينه بخرقة قديمة.

فقال الرجل الأصلع: «ألا تليق هذه الرفقة بك؟»

– «بل تليق بي. إنها ما أستحق، على أحسن تقدير. لا ألومكم أيها السادة، بل على العكس؛ لا ألوم أحدًا البتة. أنا أستحق كل هذا. أنا من انحدر بنفسه، أنا من فعل هذا بنفسه.»

– «انحدر بنفسه من ماذا؟»

– «آه، لن تصدقوني. سر مولدي هو أنني ...»

– «سر مولدك! أتعني أنــ ...»

فقال الشاب والجدية الشديدة بادية عليه: «أيها السادة. سأكشف السر لكم، فأنا أشعر بالثقة تجاهكم. أنا دوق شرعًا! أنا دوق بيلجووتر الشرعي.»

وأخذ يبكي لما صار إليه من فقر شديد، فحاولنا التخفيف عنه، لكنه قال إن حزنه أكبر من أن تداويه كلمات المواساة. قال إن علينا أن ننحني له ونحن نخاطبه قائلين: «جلالتك» و«سيدي» و«سيادتك»، وإنه لا يمانع أن نناديه بـ«بيلجووتر» — لقبه — وإن على أحدنا أن يخدمه على العشاء، وأن ينفذ كل رغباته حتى أتفهها.

كان هذا سهلًا. فعلنا هذا، ووجدنا أن هذا الأمر أسعده، أما العجوز فصمت صمتًا مطبقًا ولم يبد عليه الارتياح. بدا أن هناك ما يدور برأسه، فيما بعد قال عصر هذا اليوم: «اسمع يا بيلجووتر. أشعر بالأسى لك، لكنك لست الوحيد الذي يعاني مشكلة كتلك.»

– «وا أسفاه!»

– «لا لست وحدك من يملك سرًّا، ثم أخذ يبكي.»

– «الشقي الذي يرتدي بنطالًا جينزًا أزرق ويقف أمامك يا بيلجووتر هو ملك فرنسا المستحق البائس المنفي الذي داسته الأقدام.»

لم يمض وقت طويل قبل أن أحسم أمري بأن هذين الكاذبين لم يكونا ملكًا ودوقًا على الإطلاق، بل نصابين حقيرين، لكنني لم أقل قط ما من شأنه أن يكشف أنني توصلت إلى هذه الحقيقة، لا أمانع إن كانا يريدان منا أن ندعوهما ملكًا ودوقًا، طالما أن هذا سيبقي على سير الأمور بسلام على الطوف. إن كان هناك ما قد تعلمته من أبي، فهو أن أفضل وسيلة للتعامل مع هذا النوع من الأشخاص هي مسايرتهم.

سألانا الكثير من الأسئلة عن سبب إخفائنا الطوف أثناء النهار، وعمن نفر منهم، فاختلقت قصة لهم؛ فأخبرتهم بأن أغلب أسرتي قد توفيت وبأنني كنت أعيش مع

جيم على الطوف مع أبي وأخي الصغير، وبأن الأخيرين سقطا من على الطوف عندما اصطدمنا بسفينة بخارية.

بدأ المطر يهطل تلك الليلة، وتنازع الدوق والملك قليلًا حول من سينام على الفرش. فراشي كان أفضل قليلًا من فراش جيم، وكلا الفراشين كان تحت خيمة صغيرة صنعها جيم من بعض الأغطية، فنام الكذابان على فراشينا، فيما سهرنا نحن وراقبنا المكان أثناء العاصفة.

الفصل الحادي عشر

مسرحية المخيم

اهتدى الملك والدوق في اليوم التالي إلى طريقة قد يتكسبان بها المال في البلدة الصغيرة المجاورة، فمكث جيم على الطوف، فيما ذهبت أنا معهما إلى هناك.

عندما بلغنا البلدة، كانت الشوارع خاوية، يخيم عليها السكون التام. عثر الدوق على مكتب للطباعة وقال إنه يستطيع الاشتغال ببعض الأعمال هناك وعلم الملك بانعقاد اجتماع في مخيم، فأخذني معه إليه.

كان هناك قرابة ألف شخص في الاجتماع الذي أقيم في سقيفة كبيرة. جلس الجميع على مقاعد وأصغوا إلى أناس يتحدثون عن حياتهم وعن الدين، وارتدت النساء أغطية رأس تحمي من الشمس، وبعض الشابات كن حافيات، أما المسنات فقد طرزن بعض الثياب، وتغازل الفتية والفتيات خلسة.

أثار الواعظ حماسة الجميع، فأخذوا يغنون ويصرخون. شعرت بأن الجنون والهيستيرية قد دبا، ولم ألبث أن وجدت الملك قد أخذ في الصراخ والتحدث كواعظ، حتى إنه تسلق منصة الاجتماع وأخذ يخبر الناس بأنه كان قرصانًا ثلاثين عامًا في المحيط الهندي، وبأنه أتى إلى هنا للبحث عن طاقم جديد، لكنه بعدما استمع إلى هؤلاء القوم أخبرهم بأنه قد تغير، وبأنه يود العودة إلى المحيط الهندي للتحدث مع غيره من القراصنة ليقنعهم بتغيير حياتهم.

ثم انفجر باكيًا، فأخذ الجميع بدورهم يبكون، ثم صاح شخص ما: «اجمعوا له بعض المال، اجمعوا بعض المال!» فمر الملك بين الحشد حاملًا قبعته في يده، وبحلول الوقت الذي بلغنا فيه طوفنا، كان قد جمع سبعة وثمانين دولارًا وخمسة سنتات.

تدرب الملك والدوق صباح اليوم التالي على أدوارهما في مسرحية تدعى روميو وجولييت، كان صوتهما مزعجًا. أخرجا سيفين طويلين صنعهما الدوق من بعض أفرع

الأشجار، وتدربا على مبارزة بالسيوف، ثم اختلقا مواقف أخرى لأدائها على المسرح، ثم قررا آخر الأمر أنهما صمما عرضًا شاملًا، وجربا المسرحية في البلدة مساء ذلك اليوم، لكنها كانت مريعة، لم يحضرها أحد تقريبًا.

علم الدوق بوجود سيرك في البلدة المجاورة. كان قد صنع ملصقات إعلانية جديدة من أجل العرض الذي أراد هو والملك تقديمه، كتب عليها إنه عرض «ضخم» ولن يسمح بدخول السيدات والأطفال فيه.

قال الدوق: «إن لم يفلح هذا في حثهم على القدوم إلى العرض، فلا أدري ما الذي عساه أن يفلح في ذلك.»

عمل الدوق والملك بجد في اليوم التالي، فنصبا مسرحًا بستائر ووضعا صفًّا من الشموع لإضاءته، وناقشا بعض الأفكار الجديدة من أجل عرض الليلة. اكتظ المسرح مساءً بالرجال الذين دفع كل منهم خمسين سنتًا لدخول المسرح. لقد أفلح الملصق الإعلاني الذي وضعه الدوق في التأثير فيهم.

خرج الدوق على المسرح وتحدث عن المسرحية وأخبر الحاضرين مرارًا وتكرارًا بأنها مسرحية بالغة العظمة، وبعدما رفع آمال الجميع، رفع ستار المسرح ثم أتى الملك زاحفًا على يديه وركبتيه وجسده كله ملون بألوان مختلفة كقوس قزح. كان هذا ضربًا من الجنون، إلا أنه كان مضحكًا، وكاد الحضور أن يغشى عليهم من الضحك، فلما فرغ الملك من التبختر على المسرح، صاحوا وصفقوا إلى أن عاد ثانية وكرر الأمر، ثم جعلوه يكرره مرة أخرى. كان أي شيء سيضحك لدى رؤية هذا العجوز.

ثم أغلق الدوق ستار المسرح وقال إن العرض قد انتهى، فصاح عشرون رجلًا: «ماذا؟ انتهى؟ هل هذا هو كل شيء؟»

فأجاب الدوق بنعم، ثم ساد الصمت لحظة، بعدها صاح الجميع ووقفوا شاعرين بالسخط، وكادوا يهاجمون المسرح والممثلَين لولا أن صاح بعدئذ رجل ضخم قائلًا: «مهلًا! اسمحوا لي بكلمة فقط أيها السادة. لقد خدعانا بالفعل، لكننا لن نصير أضحوكة البلدة بأسرها. علينا أن نغادر بهدوء وأن نمتدح هذا العرض؛ بإمكاننا أن نقنع البلدة بأسرها به، عندها سنكون جميعًا في مركب واحدة. أليست تلك خطة ذكية؟»

اكتظ المسرح في اليوم التالي. أدى الملك والدوق العرض نفسه للحضور الجدد، ثم اكتظ المسرح مجددًا بالحضور مساء الليلة الثالثة. جميع من حضروا عرض الليلتين الأوليين عادوا. وجدت جميع الرجال جيوبهم ممتلئة، بعضهم حمل حزمًا من شيء ما

تحت معطفه، وشممت رائحة بيض وكرنب فاسدين، ولما لم يتسع المسرح لاستيعاب المزيد من الحضور، بدأ الدوق في الاتجاه إلى باب المسرح وتبعته، وما إن اتجهنا إلى ركنه حتى صرنا في الظلام، فقال لي: «سر بسرعة الآن إلى أن تبتعد عن المنازل، ثم اركض إلى الطوف بأقصى سرعة.»

بلغنا الطوف سريعًا ولم يمض وقت طويل قبل أن نصبح جميعًا في النهر مجددًا. قال الدوق إنه علم أن الحضور سيحاولون خداعنا بالعودة لإلقاء الطعام الفاسد علينا، فقد أرادوا الانتقام منا لخداعهم في الليلتين السابقتين.

غير أن الملك والدوق لم ينزعجا بسبب هذا، فقد جمعا أربعمائة وخمسة وستين دولارًا في هاتين الليلتين! لم أر مثل هذا الكم من المال يُغتنم من قبل.

الفصل الثاني عشر

هارفي وويليام ويلكس

بعد بضعة أيام أراد الملك والدوق أن يكررا تلك الحيلة من جديد، فخبأنا الطوف ولازمه جيم والدوق، ثم استقللت أنا والملك زورقًا بخاريًّا يعبر النهر، وفيما نحن على متنه أخذ أحد الركاب يحدث الملك؛ أخبرنا عن عائلة بالجوار تتوقع بعض الزوار قريبًا.

قال لنا الشاب إن أخوين يدعيان بيتر وجورج ويلكس قد توفيا قبل وقت قريب. توفي جورج أولًا ثم بيتر، وأخواهما هارفي ووليام آتيان لزيارة منزل العائلة، لأن بيتر أرسل في طلبهما قبل أن يموت، ثم أبلغنا الشاب أن ويليام لا يستطيع السمع أو الكلام.

ثم استطرد قائلًا إن بيتر ترك خطابًا لهارفي يذكر فيه أين خبأ ماله والكيفية التي يود أن توزع بها أملاكه بعد وفاته، فقد أراد أن يتيقن من أن ابنتي جورج ستكونان بخير.

فسأل الملك: «لِم لم يصل هارفي بعد؟ وأين يقيم؟»

فأجاب الشاب: «آه، إنه يقيم في إنجلترا، في شيفيلد، ويلقي العظات هناك. لم يأت هارفي إلى هذا البلد من قبل؛ فهو لا يملك الكثير من الوقت، ولعله لم يتلق حتى الخطاب على الإطلاق.»

فقال الملك: «تلك الفتيات المسكينات! سيتركن وحدهن هكذا في هذا العالم القاسي.»

استمر الملك في طرح الأسئلة إلى أن أفرغ كل ما بجعبة الشاب، فسأل عن الجميع، وعن كل شيء بالبلدة، وعلم كل شيء عن آل ويلكس، واكتشف أن والد بيتر يعمل دباغًا، وأن جورج كان نجارًا وأن هارفي وزيرًا وما إلى ذلك.

سأل الملك: «هل كان بيتر ويلكس ميسور الحال؟»

فأجاب الشاب: «آه، نعم، كان ميسور الحال جدًّا. لقد امتلك منازل وأراضي، ويعتقد أنه ترك ثلاثة أو أربعة آلاف دولار نقدًا مخبأة في مكان ما.»

– «ذكرت أنه توفي متى؟»

– «لم أذكر ذلك، لقد توفي ليلة أمس.»

– «إذن العزاء غدًا على الأرجح، أليس كذلك؟»

– «نعم، يقام في منتصف اليوم.»

– «الأمر برمته محزن للغاية، لكن الموت قدرنا جميعًا، لذا يجدر بنا أن نتأهب لذلك، عندها سنكون بخير.»

– «نعم يا سيدي. تلك هي أفضل طريقة. اعتادت أمي أن تقول لي هذا دائمًا.»

فلما ترجلنا من الزورق البخاري على الجانب الآخر من النهر، وغادر الآخرون جميعًا، قال لي الملك: «الآن عد بسرعة وائت بالدوق إلى هنا واجلب الأخراج. بسرعة!»

علمت ما الذي يدبره، لكنني لم أنبس بكلمة قط بالطبع، فلما عدت بالدوق أخبره الملك كل شيء، وأعاد عليه المعلومات كما قالها الشاب بالضبط؛ أعاد عليه كل كلمة، وحاول طيلة الوقت أن يتحدث كرجل إنجليزي، وقد أجاد ذلك إجادة جيدة، ثم سأل الدوق: «إلى أي مدى تستطيع أن تتظاهر بأنك لا تسمع أو تتكلم يا بيلجووتر؟»

فقال الدوق إنه تظاهر بذلك من قبل على المسرح.

بلغنا القرية فأبصر قدومنا نحو عشرين شخصًا أتوا راكضين للقائنا.

فسألهم الملك بلكنته الغريبة: «هل منكم أيها السادة من يستطيع أن يخبرني أين يقيم السيد بيتر ويلكس؟»

فتبادل الرجال النظر وأومئوا برءوسهم، ثم قال أحدهم برقة ولين: «أنا آسف يا سيدي، لكن أقصى ما نستطيع القيام به هو أن نخبرك أين لفظ آخر أنفاسه مساء البارحة.»

فشرع الملك في البكاء، وقال: «وا أسفاه! وا أسفاه! أخونا المسكين! ذهب ولن نراه مجددًا. آه، كم هذا صعب!»

ثم التفت وصنع للدوق بيده بعض الإشارات باكيًا، فأخذ الأخير أيضًا في البكاء!

فاحتشد الرجال حولهما وحاولوا مواساتهما وقالوا لهما كل أنواع الكلم الطيب، وحملوا خرجيهما لهما إلى أعلى التل، وتركاهما يتكئان عليهم وهم يقصصون للملك آخر لحظات أخيه، فأشار الملك بيده إلى الدوق مخبرًا إياه بكل ما سمعه. لم أر مثيلًا لهذين الرجلين في حياتي.

الفصل الثالث عشر

خطة الدوق

سرت الأنباء إلى كل أنحاء البلدة في غضون دقائق، وفي وقت بالغ القصر أحاط حشد بنا، وامتلأت النوافذ والباحات الأمامية بالناس. في أحيان كثيرة كان أحد الأشخاص يصيح من خلف سور: «أهؤلاء هم؟»

فيجيبه أحد من يسيرون معنا: «لا شك في هذا.»

عندما بلغنا منزل بيتر، كان الشارع الأمامي للمنزل قد اكتظ بالناس، ووقفت ثلاث فتيات عند بابه، لكن من حسن الحظ أننا تعرفنا على الجميع من القصة التي أخبرنا بها الشاب؛ ماري جين كانت الأكبر، وقد اتسمت بجمال بارع، وجهها وعيناها نضحا بالسعادة؛ كانت شديدة السرور بمجيء عميها، ففتح لها الملك ذراعيه، فارتمت بينهما، فيما احتضنت فتاة أخرى خرجت منها الكلمات بصعوبة الدوق، ووقفت الفتاة الثالثة بالجوار تشاهد وحسب.

ثم رأى الملك والدوق تابوت بيتر الذي ارتكز على كرسيين، فسارا إليه والجدية الشديدة بادية عليهما، ثم حجبا عينيهما وكأن المشهد يؤلمهما، وأفسح لهما الجميع، وتوقف الكلام والضجيج، ووقف الملك والدوق أمام التابوت بضع ثوان ثم انفجرا بالبكاء وجثيا إلى جانبه وتظاهرا بالصلاة عليه. نجح هذا في التأثير في الحشد تأثيرًا كبيرًا. إنه مشهد لم تره قط في حياتك. الجميع انفجروا باكين.

لم يمض وقت طويل قبل أن يقف الملك ويلقي خطابًا مليئًا بالدموع والهراء عن مدى صعوبة فقدان بيتر له ولأخيه المسكين، وعن حزنه الشديد لأن رؤية أخيه حيًّا فاتته بعد رحلته الطويلة من إنجلترا، وتحدث تقريبًا عن الجميع في البلدة ذاكرًا قدر المستطاع أشخاصًا بأسمائهم، كما أخبرنا الشاب في اليوم السابق، وذكر كل صغيرة وقعت في وقت ما بالبلدة، أو ما وقع لأسرة جورج وبيتر، وجعل الأمر يبدو وكأن بيتر كاتبه مخبرًا إياه

بكل هذه الأمور، لكن هذا كذب، فقد سمع أدق التفاصيل من الشاب الذي كان على متن الزورق البخاري.

فأحضرت ماري جين الخطاب الذي تركه عمها، فقرأه الملك بصوت عالٍ وبكى عليه. شرح الخطاب كيف أراد بيتر أن توزع ثروته بين الفتيات وأخويه، ووصف المكان الذي خُبئت فيه ستة آلاف دولار في قبو المنزل. صحبني النصّابان معهما إلى طابق سفلي، فلما عثرنا على حقيبة النقود، أوقعا المال على الأرض.

قال الدوق: «لدي فكرة. لنصعد إلى الطابق العلوي ونحصي المال ونعطيه للفتيات!»

فقال الملك: «إنها أفضل فكرة واتتك. سيصدقن حتمًا أننا أعمامهن إن أعطيناهن النقود.»

لما عاد الملك إلى الطابق العلوي. ألقى خطبة أخرى عن بيتر ويلكس ثم أعطى الحقيبة المملؤة بالنقود لماري جين، فاحتضنته، وذهبت الابنتان الأخريان لتحتضنا وتقبلا الدوق.

لم يلبث الملك بعدئذ أن خاض مجددًا في حديث عن المتوفى، واضطر الدوق إلى التظاهر بأنه لا يستطيع السمع أو الكلام، لكن الملك لم يجد صعوبة في الكلام، فظل يتحدث بلا انقطاع. شعرت أنه غالى في الأمر كثيرًا، مع أن الغالبية بدا أنها تصدقه.

لكن عندئذ علت ضجة بين الحشد وقال شخص ما: «دكتور روبينسون! أما علمت؟ هذا الرجل هو هارفي ويلكس.»

فابتسم الملك وحاول أن يصافح الدكتور روبينسون.

فقال الأخير: «أبعد يديك عني!»

«أتعتقد أنك تتحدث بلكنة إنجليزية؟ هذا أسوأ تقليد سمعته. أنت لست أخا بيتر ويلكس. أنت محتال!»

أزعج هذا الحشد بشدة؛ كان الملك قد نجح في إقناع الجميع تقريبًا بأنه حقًّا هارفي ويلكس، لكن لما قالت ماري جين إنها تصدقه، حسم هذا الأمر لدى الجميع عدا الدكتور روبينسون العجوز.

حضرنا عشاءً كبيرًا مع بنات جورج مساء ذلك اليوم، ثم أعددن لكل من الملك والدوق غرفة. أمضيت بعض الوقت في الحديث إلى كل منهن، ولم يكن هذا سهلًا، أؤكد لكم هذا؛ إذ كنت أحاول تقليد لكنة الملك الإنجليزية. حسبت أنهن سيكشفن أمري على الفور، لكن ذلك لم يحدث، وبدأت أعتقد أن تلك الفتيات لطيفات ولا يستحققن أن

يسلبهن هذان النصابان أموالهن. شعرت بخستي ووضاعتي الشديدة حتى إنني قررت أن أسلب الملك والدوق المال.

عندما استلقيت على فراشي تلك الليلة حاولت أن أصل إلى طريقة لخداع هذين الرجلين. قررت أن أسرق المال منهما وأن أخفيه في مكان ما، بعدها أستطيع أن أترك رسالة لماري جين أخبرها فيه بالمكان الذي سأخبئ فيه المال، بذا تستطيع أن تحصل على المال بعد مغادرتنا.

بدأت أفتش غرفة الملك، لكنني اضطررت إلى الاختباء عندما سمعت الرجلين يصعدان الدرج. دخلا الغرفة وتحدثا عن خطتهما. سماعها أوقع في نفسي الرعب. كنت أعلم مسبقًا أنهما أرادا سرقة الستة آلاف دولار، لكنهما أرادا أيضًا أن يبيعا المنزل وكل ما امتلك بيتر ويلكس. بعبارة أخرى أرادا أن يتركا الفتيات بلا شيء!

تذمر الدوق قائلًا إنه لم يرد سلب الكثير من الأيتام من «كل» ما يملكونه.

فقال الملك: «ما هذا الذي تقوله! لن نسلبهم إلا النقود. من يشتري الأملاك سيضطر إلى إعادتها كلها إلى الفتيات ما إن يكتشفن أننا لسنا حقًّا إخوة ويلكس. هذا هو القانون. لن يعانين على الإطلاق.»

ظل الملك يتحدث ويتحدث إلى أن أقنع الدوق، وبعد أن خبئا كيس النقود، عادا إلى الطابق السفلي ليتمنيا للجميع ليلة هانئة.

حصلت على كيس النقود قبل أن يبلغا منتصف الدرج، ثم عدت إلى غرفتي. خمنت أنهما لن يلحظا اختفاء المال لوقت قصير، لكنهما سيأتيان للبحث عنه عندما يكتشفان اختفاءه، لذا أردت إخفاءه على جناح السرعة.

انتظرت إلى أن تيقنت من أن الجميع نيام، ثم تسللت هابطًا الدرج بالنقود، ورأيت التابوت في صالة الاستقبال. كانت الاستعدادات قد اتخذت لإقامة الجنازة في اليوم التالي. دخلت الصالة ونظرت حولي. المكان الوحيد الذي رأيت إخفاء النقود فيه هو التابوت، فدسست كيس النقود تحت غطائه، تحت يدي الرجل المتوفى المنعقدين بالضبط، فسرت قشعريرة في جسدي. يداه كانتا شديدتا البرودة.

انعقدت الجنازة في اليوم التالي. لا شك أنني استغربت رؤية التابوت يدفن. كنت الوحيد الذي يعلم أن بداخله ستة آلاف دولار مخبأة.

أخبر الملك الفتيات مساء ذلك اليوم أن عليه هو وويليام أن يسارعا بالعودة إلى إنجلترا، وأراد من الفتيات أن يحددن ميراثهما في أسرع وقت ممكن. قال إنه سيقيم

مزادًا لبيع المنزل وكافة الأملاك، بل وزعم أنه ووليام سيصحبانهن إلى إنجلترا! شعرت الفتيات بالسعادة البالغة لسماع هذه الأنباء، ووافقن على الفور وطلبن من الملك بيع كل شيء بأقصى سرعة يرتضيها.

الفصل الرابع عشر

اعتراف هاك

أيقظني الملك والدوق باكرًا صباح اليوم التالي. أنبأني وجهاهما بأن هناك مشكلة.

سأل الملك: «هل كنت في غرفتي الليلة الماضية أو الليلة السابقة عليها؟»

فأجبته: «كلا، يا صاحب الجلالة.»

– «هل رأيت أحدًا آخر يذهب إلى هناك؟»

فتظاهرت بالتفكير للحظة ثم أخبرتهما بأنني رأيت عدة مرات بعض العبيد يدخلون غرفة الملك.

فقفز كلاهما قليلًا وبدا كأنهما لم يتوقعا هذا قط، ثم تبدلت تعابير وجهيهما وبدا وكأنهما توقعا بالفعل أن يسرق العبيد المال.

بدا عليهما الغضب والانزعاج؛ وقفا مكانهما يفكران ويحكان رأسيهما دقيقة ثم أطلق الدوق ضحكةً خافتةً بصوت أجش، وتحدثا عن ذكاء هؤلاء العبيد الشديد، فسألت هل هناك خطب ما؟ فغضبا بشدة مني لسؤالي هذا ولأنني لم أخبرهما بأنني رأيت العبيد يدخلون الغرفة. كان العبيد قد تركوا المنزل اليوم السابق على ذلك، عندما ذاعت أنباء بأن الملك والدوق ينويان إقامة مزاد لبيع جميع الأملاك.

كنت أعلم أن الملك والدوق لن يودا أن يخبراني باختفاء المال، إذ لم يخطر ببالهما أنني أعلم بأنه كان معهما من الأساس! لم يحسبا أنني قد علمت بخطتهما لسرقة الفتيات.

رأيت ماري جين تبكي في اليوم التالي، فلما ذهبت إليها لأحدثها أخبرتني بأنها تشعر بالحزن لمغادرة منزلها؛ قالت إنها شعرت بالحماسة لأنها ستسافر إلى إنجلترا عما قريب، لكنها مع ذلك تشعر بالحزن لمغادرة منزلها، فلما وجدتها تبكي إلى هذا الحد وتصدق أن هذين المحتالين هما حقًّا عماها، لم أستطع الاستمرار في الكذب عليها.

فقلت: «علي أن أخبرك بالحقيقة، وعليك أن تتأهبي لها يا آنسة ماري، لأنها محزنة. سيكون من الصعب عليك تحملها، لكن لا مفر من ذلك. عماك هذان ليسا عميك على الإطلاق. إنهما محتالان حقيران.»

لا شك أنها دهشت لذلك، لكن بما أنني كنت قد جاوزت أصعب المراحل، مضيت في كلامي وأخبرتها بكل التفاصيل، وصفت كل ما حدث منذ أن التقينا هذا الشاب الأحمق على الزورق البخاري إلى اليوم الذي احتضنتْ فيه الملك وقبلته عندما التقت به.

فوَقَفتْ وقالت وقد اتقد وجهها بالحمرة: «هذا المتوحش! تعال، لا تضيع أي وقت. سنجعلهما ينالا عقابهما ويُكسوان بالقطران والريش ويلقيان في ماء النهر!»

فقلت: «هذان المحتالان قاسيان، وعلي أن أسافر معهما وقتًا أطول سواء أشئتُ أم أبيت. أفضل ألا أخبرك بالسبب. إن كنت تنوين الوشاية بهما، فسأحتمي في هذه البلدة منهما، وسأكون على ما يرام، لكن شخصًا آخر لا تعرفينه سيقع عندئذ في ورطة كبرى، وعلينا إنقاذه. أليس كذلك؟ علينا هذا بالطبع؛ إذن لا يمكننا أن نشي بهما بعد.»

واتتني وأنا أتحدث إليها فكرة لأتخلص من هذين المحتالين؛ فطلبت منها أن تمكث في منزل صديقتها الذي يقع على بعد بضعة أميال، فيما أعمل أنا على خطتي، بعدها تعود هي إلى هنا، وإن لم أكن أنا قد عدت قبل الساعة الحادية عشرة، فستخبر هي الجميع بحقيقة الملك والدوق.

بعد أن غادَرَت ماري جين، خرجت من المنزل قاصدًا المزاد الذي انعقد في ميدان البلدة العام. كان هذا في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، وقد استغرق بيع كل شيء وقتًا طويلًا. ظل الملك يلقي الخطابات ويقاطع الدلال، فيما تظاهر الدوق بأنه يتحدث بلغة الإشارة، وباعا في آخر الأمر كل شيء، لكن لما أوشك المزاد على الانتهاء، أتى حشد من ميناء الزوارق البخارية يصيح ويضحك صانعًا جلبة.

صاح من بالحشد: «ثمة وريثان آخران لثروة بيتر ويلكس العجوز! أخوان آخران!»

سار الحشد مع سيد كبير السن وآخر أصغر سنًّا يبدو وسيمًا. لشد ما صاح الناس وضحكوا! لكنني لم أجد في الأمر ما يضحك. حسبت أن الملك والدوق سيبتئسان قطعًا، لكنهما تأملا القادِمَين، ورسم الملك على وجهه تعبيرًا وكأنه يشعر بالاستياء من وجود محتالين كهاذين القادمين، فيما بدا على السيد اللطيف كبير السن الارتباك. أدركت على الفور أنه يتحدث بلكنة إنجليزية حقيقية، لا تشبه على الإطلاق لكنة الملك الزائفة.

بعدئذ دار الكثير من الجدل. قال القادمان الجديدان إنهما هارفي ووليام ويلكس الحقيقيان، وإن هناك ما أخرهما في رحلتهما إلى هنا، وإن عليهما الآن أن يبرهنا على أنهما

يقولان الحقيقة، فقال الدكتور روبينسون العجوز إنه أدرك أن الملك والدوق يكذبان وطالب بإعادة الستة آلاف دولار، فأخبره الملك أن هذا المال سرقه العبيد الذين غادروا البلدة منذ ذاك.

انقسم أهل البلدة في البداية بين معتقد أن الملك والدوق هما أخوا ويلكس الحقيقيان وبين مصدق للقادمين الجديدين، لكنهم لما استمعوا إلى الأخوين الحقيقيين أدرك عدد أكبر من الناس الصادق والكاذب، غير أن الملك لعب دوره جيدًا وأجاب على كل الأسئلة على نحو جيد حتى أصبح إثبات كذبه صعبًا.

طلب السيد العجوز في نهاية الأمر من الملك أن يصف الوشم الذي حمله صدر المتوفى، فقال الملك إنه سهم أزرق صغير، أما السيد العجوز فقال إنه الأحرف الأولى من اسم المتوفى: حرفا الباء والواو، فيما قال الطبيب الذي عاين الجثمان إنه لم ير أي وشوم، فقرر الجميع نبش قبر المتوفى لإلقاء نظرة على جثمانه، وهذا سيحسم حسمًا نهائيًّا من يدلي بالحقيقة.

أؤكد لكم أنني شعرت بالخوف، لكن لم يكن هناك مهرب. أمسك الحشد بنا وسار نحو المقبرة وبدأ الكثيرون في الحفر ولم يمض وقت طويل قبل أن يحل الظلام، ويهطل المطر وتصفر الرياح، ويسطع البرق ويدوي الرعد، إلا أن القوم لم ينتبهوا لهذا؛ كان الجميع يضع نصب عينيه القبر.

استخرجوا التابوت في نهاية الأمر، وبدءوا في إزالة غطائه، ثم صاح شخص ما: «ثمة كيس من الذهب!»

فأفلتني الرجل الذي يمسك بمعصمي واقترب من التابوت مع الجميع، فأخذت أركض بأقصى سرعتي. ركضت عبر البلدة عائدًا في المطر. لم أستطع الرؤية إلا عندما سطع البرق، لكنني واصلت الركض إلى أن أبصرت في آخر الأمر النهر حيث اختبأ جيم والطوف.

عندما قفزت إلى متن الطوف قلت: «جيم انهض! علينا أن نغادر الآن!»

سعد جيم بشدة لرؤيتي، وكلانا كان مسرورًا لتخلصنا من الملك والدوق. قبل أن تمضي بضع ثوان كنا نسير مع ماء النهر، لكن تنامى إلى سمعي صوت مألوف. أرهفت السمع، فلما لمع البرق مجددًا كانا هناك! الدوق والملك! أتيا في زورق وجدفا نحونا بأقصى سرعة.

جاهدت بكل قواي لأمنع نفسي من البكاء.

غضبا مني لأنني فررت، لكن لما تحدثا عن الكيفية التي فرا بها، اتفقا على أني قمت بالصواب. اتضح أنهما بدورهما قد فرا عندما تحرك الحشد لرؤية كيس الذهب الذي يحتويه التابوت. كانا غاضبين لأنهما ضيعا هذا المال ولم يستطيعا أن يفهما كيف وصل كله إلى التابوت، ثم اتهم كل منهما الآخر بمحاولة سرقته، فلما خلدا أخيرًا إلى النوم مساءً، ظللت ساهرًا وأخبرت جيم بكل ما حدث.

الفصل الخامس عشر

اختفاء جيم

لم نرسُ في أي بلدة مجددًا عدة أيام، ظل الطوف يطفو بنا وحسب مع ماء النهر، لكن ما إن شعر المحتالان بأنهما قد نأيا بأنفسهما عن الخطر، حتى بدآ في الاحتيال على القرى مجددًا. جربا كل الخدع والألاعيب لجني المال، لكن لم يبد أن أيًّا منها ينجح، وأفلسا تمامًا في نهاية الأمر، فاستلقيا على الطوف يعتصران ذهنيهما، شاعرين بالحزن والإحباط الشديد.

ثم أخذا يسيران معًا وحدهما بعد برهة، فتسلل القلق إلي أنا وجيم، لم يعجبنا ما بدا عليه الأمر. فطنا إلى أن المحتالين يخططان لعملية أخرى، فقررنا أن ندير ظهرينا لهما ما إن تسنح الفرصة ثم أن نغادر ونتركهما.

قصد الملك البلدة التالية لتقصي أمورها، بعدها تبعته أنا والدوق بعد بضع ساعات، فوجدناه يثير المشكلات ويتورط فيها، فلما تشاجر هو والدوق، فررت؛ فركضت عائدًا إلى الطوف وناديت جيم، لكنني لم أتلق جوابًا. لقد اختفى! فبحثت كثيرًا، إلا أنني لم أجده، وفي نهاية الأمر لم أقو على منع نفسي من البكاء، فجلست أبكي.

رأيت صبيًّا صغيرًا يسير بالقرب مني، فوصفت له جيم وسألته إن كان قد رأى من يشبهه، فقال الصبي إن جيم في مزرعة رجل يدعى سيلاس فيلبس.

ثم أضاف: «جيم هذا كان عبدًا هاربًا وقد أمسكنا به الآن.» ثم أردف قائلًا: «وضعتْ مكافأة قدرها مائتا دولار للقبض عليه. رأيت بنفسي الملصق الذي يعلن عنها. أفصح رجل عجوز لرجال البلدة عن مكانه مقابل أربعين دولارًا فقط، بدا هذا كالعثور على النقود في الطريق.»

فجلست على الطوف وحاولت أن أصل إلى ما علي فعله بعدئذ. ظللت أفكر إلى أن آلمني رأسي، لكنني لم أجد مخرجًا من هذه الورطة. على الرغم من كل ما قمنا به من

أجل هذين الوغدين، فسد كل شيء لأن قسوتهما سمحت لهما بخيانة جيم مقابل أربعين دولارًا.

فكرت في كتابة خطاب للسيدة واتسن، لعلها تدرك ما الذي يجب فعله، لكن خطر لي بعدئذ أنني قد أقع في ورطة لمساعدة جيم على الهرب والتسبب في كل هذه المشكلات، لكنني تذكرت كل المعروف الذي أسداه جيم إلي، ومساعدة كل منا الآخر وعنايته به. كنت أعلم أن جيم سيضطر إلى العودة إلى حياته القديمة إن أرسلت هذا الخطاب، لكن إن كان بوسعي إنقاذه فسيصبح حرًّا من جديد، حتى إن عنى هذا أن يظن الناس بي السوء، لم أهتم بظن الناس بي، وعزمت على مساعدته للحصول على حريته.

خبأت الطوف والزورق وكل معداتنا، ثم اتجهت إلى مزرعة فيلبس، فلما بلغتها وجدتها هادئة موحشة. كانت مزرعة قطن صغيرة ذات سور حديدي يحيط بساحة مساحتها فدانان وبمنزل كبير من أحطاب الأشجار مطلي بماء الكلس، لما سرت نحوه، أخذت بعض الكلاب تنبح، ولم تتوقف إلا بعد أن خرجت امرأة في الخامسة والأربعين أو في الخمسين من العمر، ويتبعها طفلان وبعض العبيد. الجميع كان مبتسمًا.

قالت المرأة: «إنه أنت أخيرًا! أليس كذلك؟»

فأجبتها بلا تفكير: «نعم، يا سيدتي.»

فاحتضنتني بقوة وشرعت في البكاء.

ثم قالت لي إنني على عكس ما توقعتْ لا أشبه والدتي.

ثم أردفت: «كم أنا سعيدة برؤيتك! يا أطفال، هذا ابن عمكم توم! تعالوا لتحيته. حسبنا أنك ستصل إلى هنا قبل بضعة أيام. كنا في غاية القلق.»

اختلقت قصة تبرر سبب تأخر زورقي، وفيما تحدثنا حاولت أن أحصل على معلومات عن الشخصية التي أتظاهر بأنني هي، كما حاولت أن أعرف أي شيء عن جيم. خمنتُ أن المرأة هي زوجة السيد فيلبس، ولما أدخلتني إلى بيتها، خمنت أن الرجل الذي بالداخل هو السيد فيلبس.

سأل الرجل عندما رآني: «من هذا؟»

فقالت السيدة: «من برأيك؟ إنه توم سوير؟»

الفصل السادس عشر

توم سوير

عندما سمعت اسم توم سوير، كاد أن يغشى علي، لكن لم يكن هناك وقت للتفكير سألاني شتى الأسئلة عن أنباء عائلة توم في موطني، وشعرت بالسعادة الشديدة عندما عرفت من علي أن ألعب دوره، إذ كنت على دراية بكل المعلومات وكافة أخبار عائلة سوير، فتحدثت كثيرًا وأدليت لهم بما يكفي من الأنباء عن ست أسر من عائلة سوير، على سبيل المثال: علمت على الفور أن المرأة العجوز التي التقتني هي حتمًا سالي خالة توم، مما يعني أن العجوز هو العم سيلاس.

شعرت بالارتياح الشديد لكوني أتظاهر بأنني توم سوير، لكن بعدئذ خطر لي احتمال أن يأتي توم من الشارع الذي سلكته بالضبط، وأن يطلعهم على هويتي قبل أن أعطيه إشارة بألا يفضح الأمر. لم أستطع أن أجازف بذلك، فأخبرتهم أنني سأقصد مركز المدينة لجلب متاعي، وفي طريقي إلى هناك التقيت توم سوير كما توقعت، فناديته، فتوقف وفغر فاه عن آخره وحسبني شبحًا.

قال: «أنا لم أؤذك قط. لماذا تود أن تعود وتطاردني؟»

فقلت له: «أنا لم أعد، ولم أمت قط.»

تطلب الأمر بعض الشرح قبل أن يتفهم توم موقفي، بعدها شعر بالحماسة؛ إذ أحب المغامرات. أخبرته كل شيء عن المحتالَين، وعن الكيفية التي ألقي بها القبض على جيم، وأخبرته بأن خطتي هي أن أدعي أنني توم إلى أن أصل إلى طريقة أحرر بها جيم. أردت أيضًا أن أتيقن من أنني بمنأى عن الدوق والملك.

فقال توم إنه يعلم ما الذي ينبغي فعله بالضبط، فعدت أولًا إلى مزرعة فيلبس بمتاعه، ثم أتى توم بعد نصف ساعة وتظاهر بأنه أخوه سيد.

فقالت له الخالة سالي: «عجبًا. إنها لمفاجأة. لم نتوقع مجيئك. توقعنا أن يأتي توم وحسب. لم تكتب أختي لي أن أحدًا آخر قادم.»

قال: «لم يكن من المفترض أن آتي، لكنني توسلت إلى أمي كثيرًا فسمحت لي أن آتي في آخر لحظة.»

بعدئذ تناولنا العشاء. حاولت أنا وتوم أن نصل إلى بعض الأنباء عن جيم، لكننا لم نستطع معرفة شيء عنه، ثم ذكر توم أنه رأى ملصقًا إعلانيًّا عن عرض مقام في البلدة، وسأل إن كان بإمكانه الذهاب إليه، لكن رفض العم سيلاس، لكنني أدركت أنه العرض الذي يقيمه الدوق والملك، فأخبرت توم عنه مساء ذلك اليوم وقررنا أن نتسلل خلسة لتحذير أهل البلدة من هذين المحتالين.

فلما بلغنا مركز البلدة مساءً، رأينا حشدًا من الناس في الشارع، جميعهم يحمل مشاعل والكل يصرخ ويهتف في حماس ويطرق الأواني القصديرية وينفخ الأبواق، فابتعدنا عن طريقهم بأسرع ما أمكننا، ثم رأينا الملك والدوق أثناء مرورهما وهما مكسوان بالقطران والريش ويجلسان على قضيب سكة حديدية قديم يحمله الحشد. عرفتهما مع أنهما كانا مكسوين بالقطران والريش، وأشفقت عليهما. لم أحسب أنني قد أغضب منهما ثانية، كان مشهدًا فظيعًا. قد يقسو البشر بعضهم على بعض إلى حد مخيف.

الفصل السابع عشر

إنقاذ جيم

أخبرني توم في اليوم التالي أنه رأى أحد العبيد يجلب بعض الطعام إلى كوخ صغير يبعد قليلًا عن المنزل. كنت أنا بدوري قد رأيته، فأخبرني توم أن جيم قد يكون هناك. قال توم إن العبد أغلق باب الكوخ بمفتاح كان العم سيلاس يحمله، فخطر لي على الفور أن علينا سرقة المفتاح مساءً وإطلاق سراح جيم، لكن توم كانت لديه أفكار أخرى.

قال: «لا شك أن هذا سينجح، لكنها خطة بسيطة للغاية. تخلو من أي نكهة.»

علمت أن توم ستكون لديه خططه الخاصة، وكنت أعلم أنها ستتسم بالصعوبة والخطورة وهو سيغيرها على الأرجح عشر مرات في الدقيقة، وهذا هو ما فعله. أراد أن يطلق سراح جيم، لكن كان عليه أن يفعل هذا بطريقته الخاصة.

قصدنا الكوخ مساء ذلك اليوم. كانت بأحد جوانبه فتحة ظننت أنه يمكن لجيم التسلق للمرور من خلالها إن استطعنا نزع أحد ألواح الكوخ.

لكن توم قال: «آمل أن نجد طريقة أكثر تعقيدًا من هذه؛ طريقة غامضة، صعبة وجيدة.»

وجدنا بعض الأدوات فشعر توم بالسعادة.

قال: «سنحفر لاستخراجه. سيستغرق هذا أسبوعًا! هذه خطة مثالية.»

تبعنا في اليوم التالي العبد الذي جلب الطعام إلى الكوخ، وبعدما تحدثنا إليه كثيرًا أقنعناه بأن يسمح لنا بالدخول. كان المكان مظلمًا، لكن جيم كان به، يجلس على فراش متهالك وهو يستند إلى الحائط والحزن باد عليه.

قال جيم: «هاك! يا إلهي! هل هذا توم سوير؟»

أخبرناه بأننا سنطلق سراحه وأن عليه ألا يقلق إن سمع صوت حفر ليلًا. سيكون نحن من يحفر، ليس إلا. لم يتسن لجيم وقت إلا للإمساك بيد كل منا وشكره، بعدها اضطررنا للمغادرة قبل أن يأتي العبد الذي يجلب الطعام ليبحث عنا.

قبل أن يمضي وقت طويل أخذ توم في تغيير خطته. رأى أن الحفر لإخراج جيم من الكوخ سيكون أمرًا هينًا للغاية؛ كان جيم أيضًا بحاجة إلى سلم من الحبال، وتعين عليه أن يكتب خطابات عن مدى شعوره بالوحدة. امتلك توم العديد من مثل هذه الأفكار التي تشرّب بها من كل قصص المغامرات التي قرأها.

بدأنا في الحفر تحت الكوخ مساءً بعد أن خلد الجميع إلى النوم. أراد توم في البداية أن نحفر بأيدينا لكن هذا استغرق وقتًا طويلًا، فقال في نهاية الأمر إنه لا بأس على الأرجح من استخدام المعاول والمجاريف التي استعرناها، فحفرنا إلى أن تعبنا من المواصلة. بلغت الحفرة عمقًا كافيًا يسمح بالزحف من تحت جدار الكوخ والدخول.

بعدئذ أخذنا في اليوم التالي ورقة ليكتب عليها جيم، وجلبنا له بعض الملاعق وشمعدانًا ليستخدمه كقلم، كما أخذنا بعض الشموع والأطباق إذ رأى توم أنها قد تخدمنا.

تسللنا مساءً إلى الكوخ وأيقظنا جيم. كان سعيدًا برؤيتنا حتى إنه كاد يبكي. أراد أن يرحل معنا على الفور، لكن توم أوضح له أن هذه ليست الطريقة الصائبة للفرار، قال إن علينا أن ننقذ جيم وفقًا لما تقضيه قصص المغامرات، وقد كان خبيرًا في هذا الصدد، فأيدناه أنا وجيم، فأوضح الكيفية التي على جيم أن يكتب بها على الورقة والأطباق، وأخبره بالكيفية التي يصنع بها سلمًا من الحبال. كان الأمر برمته مربكًا للغاية، لكن جيم قال إنه سيحاول القيام بكل هذا، فشعر توم بحماسة بالغة وقال إنه لم يتسلَ كذلك من قبل.

الفصل الثامن عشر

مغامرة توم

بدأت الخالة سالي والعم سيلاس في الأيام التي تلت يلاحظان اختفاء بعض الأغراض من المنزل: الورق، والملاعق، والشموع، وأغراض أخرى رأى توم أنها لازمة لإطلاق سراح جيم، فحاولت أنا وتوم خداعهما بإبدال بعض هذه الأشياء بأخرى وأخذ أشياء أخرى في وقت لاحق.

أيضًا أزعجت خطة توم جيم الذي كان من المفترض أن يكتب قصائد ويرسم شعارًا. المشكلة هي أن جميعنا كنا نجهل كيفية القيام بذلك، لكن توم أحسن اختلاق الشعار لجيم، غير أنه مرت ثلاثة أسابيع، وشعرت أن إطلاق سراح جيم يستغرق وقتًا طويلًا.

عندما أصبحنا أخيرًا جاهزين لإطلاق سراح جيم تعين علينا أن نكتب خطابًا تحذيريًّا للخالة سالي والعم سيلاس من مجهول غامض. قرأ توم كل شيء عن هذا الأمر في إحدى كتبه، فترك ذات ليلة خطابًا تحذيريًّا يقول: «حذار. ستقع المشكلات عما قريب. انتبهوا. من صديق مجهول.»

وضع توم الخطاب خلسة تحت باب المنزل الأمامي، ثم جلب في الليلة التالية جمجمة وعظمتين متصالبتين ترمزان إلى الموت للباب نفسه، وفي الليلة التي بعدها جلب تابوتًا إلى الباب. كان الأمر برمته مخيفًا جدًّا وشديد الغموض، بث القلق الشديد في نفس الخالة سالي والعم سيلاس. أقل صوت سمع بالخارج جعلهما يقفزان من مكانيهما، وحسب الناس أن الأشباح في كل مكان.

بعدئذ ترك توم خطابًا آخر: «أتمنى أن أصبح صديقًا لكم، وأود أن أحذركم من أن عصابة بائسة تسعى إلى اختطاف اللص الهارب الليلة، وهم يحاولون إلى تلك اللحظة

إخافتكم لتمكثوا في المنزل ولا تزعجوهم. أنا فرد من العصابة، لكنني أود أن أعتزلها وأحيا حياة شريفة من جديد.»

ذكر الخطاب أن العصابة ستتسلل إلى المزرعة في منتصف الليل، وأخبر أسرة فيلبس بالكيفية التي تلقي بها القبض على العصابة.

عدت إلى المنزل في اليوم التالي فيما كان توم يعد لعملية الإنقاذ، اجتمع هناك حشد كبير! كان هناك خمسة عشر فلاحًا جميعهم يحملون أسلحة، فشعرت بالخوف. تحدثوا جميعًا بصوت خفيض وبدا عليهم التوتر والارتباك، فركضت مبتعدًا وعثرت على توم عندما ابتعدت، فأخبرته عن هؤلاء الرجال.

فالتمعت عيناه ببريق وقال: «لا! حقًّا؟! أليس هذا رائعًا.»

فقلت له: «أسرع، علينا أن نطلق سراح جيم الآن.»

حللنا القيد الذي قيد ساق جيم، ثم سمعنا رجالًا قادمين، فاختبأنا جميعًا عندما فتحوا باب الكوخ. كان الظلام يخيم على المكان ولم يرنا أحد ونحن نزحف خارجين من الحفرة التي صنعناها. تسللنا إلى الخارج متجهين إلى السور، وكدنا نبتعد لولا أن سروال توم علق بقطعة من الخشب، فسمعنا شخص ما وصاح: «من هناك؟ أجب وإلا أطلقت الرصاص!»

فلم نجب، بل ركضنا بلا توقف. دوى صوت الرصاص ومرق من حولنا بأزيز وسمعنا الرجال يصيحون قائلين: «ها هم، إنهم متجهون نحو النهر! الحقوا بهم يا فتية، وأطلقوا سراح هذه الكلاب!»

بلغنا النهر وعثرنا على المكان الذي خبأت فيه زورقي، فقفزنا إليه وجدفنا لننجو بحياتنا صوب الجزيرة التي خبأت بها الطوف إلى أن ابتعدنا عن هؤلاء الرجال، فلما صعدنا أخيرًا الطوف قلت: «الآن يا جيم أصبحت حرًّا من جديد. أراهن أنك لن تصير عبدًا مجددًا.»

فقال جيم: «كم أدينا عملًا رائعًا يا هاك. صُممت الخطة على نحو رائع. لم يكن بمقدور أحد أن يأتي بخطة أفضل من تلك.»

كنا في قمة السعادة، لكن توم كان أكثر سعادة منا؛ لأن رصاصة أصابته في ساقه، فلم أعد أنا وجيم نشعر الشعور نفسه؛ إذ آلمت الرصاصة توم ألمًا شديدًا وجعلته ينزف بغزارة، فمزقنا أحد قمصان الدوق لصنع ضمادة له، لكنه أراد أن يفعل ذلك بنفسه.

قال توم وهو ما زال يشعر بالحماسة لفرارنا: «فعلنا هذا ببراعة، أليس كذلك؟»

أدركت أنا وجيم أن توم بحاجة إلى طبيب، لكن توم لم يرد هذا؛ إذ لم يحدث هذا في أي من كتب المغامرات الخاصة به، إلا أنه وافق في آخر الأمر أن يتركني أذهب لإحضار الطبيب، فهو لم يملك خيارًا إلا هذا، لكنني جعلته يعتقد أنه قراره، وجعلني أقسم بأن أعصب عيني الطبيب لئلا يعرف مكان مخبئنا، فقلت له إنني سأفعل هذا وسيختبئ جيم إلى أن يغادر الطبيب.

كان الطبيب الذي عثرت عليه رجلًا مسنًّا يبدو طيبًا للغاية. أخبرته بأن أخي قد أصيب في حادثة صيد وأننا نريده أن يساعدنا دون إخبار أسرتنا.

فسأل: «من أهلك؟»

فأجبت: «آل فيلبس.»

فقال: «آه.» ثم قال بعد برهة: «كيف أصيب؟»

– «راوده حلم وكاد أن يتسبب في مقتله.»

فقال الطبيب: «يا له من حلم!»

لما رأى زورقي، قال إنه لن يتسع لكلينا، وطلب مني المكوث في مكتبه إلى أن يعود، فلم يكن لدي الوقت لأجادله، أخبرته بمكان الجزيرة التي يوجد عليها توم، فذهب إليها.

لم يمض وقت طويل قبل أن يغشيني النعاس في هذا المكتب، فلما استيقظت كانت الشمس قد طلعت، فقصدت منزل الطبيب، لكن ساكنيه أخبروني بأن الطبيب لم يعد بعد. اعتقدت أن تلك الأنباء تبدو سيئة لتوم، وأردت أن أعود أدراجي إلى الجزيرة على الفور، فغادرت منزل الطبيب، لكنني بعد أن جاوزت أصعب المراحل اصطدمت بالعم سيلاس!

قال لي: «توم، أين كنت طيلة هذا الوقت أيها الوغد؟»

فقلت له: «لم أغب قط. كنت أبحث عن العبد الفار أنا وسيد.»

فقال: «حسنًا. وأين ذهبتما بحق السماء؟ خالتكما شعرت بقلق بالغ حيالكما.»

– «كنا بخير. لقد تبعنا الرجال والكلاب وركبنا قاربًا في الماء وضللنا الطريق قليلًا ثم نمنا هناك حتى وقت قريب. وسيد في مكتب البريد. كنا بصدد العودة إلى منزلنا.»

فأتى العم سيلاس معي إلى مكتب البريد لنحضر سيد، لكنه لم يكن هناك بالطبع، فقال العم سيلاس إن علينا أن نتجه إلى المنزل فورًا، والتقط خطابًا مرسل إليه ثم غادر.

لما عدنا إلى المنزل سعدت الخالة سالي بشدة لرؤيتي وضحكت وبكت واحتضنتني، إلا أنها كانت أيضًا تشعر بغضب شديد، وقالت إنها ستغضب أيضًا من سيد ما إن يعود إلى المنزل.

امتلأ المنزل بالمزارعين وأسرهم. تحدث الجميع بحماسة عن الليلة السابقة والخطابات والرسم الغامض. كنت أعلم أنني وتوم نقف وراء كل هذا، لكنني لزمت الصمت.

لم يعد توم إلى المنزل على الإطلاق هذا اليوم، فقصد العم سيلاس مركز البلدة عدة مرات للبحث عنه ثم حل المساء ومعه بات العم سيلاس والخالة سالي يشعران بقلق بالغ. سهرت الخالة سالي طوال الليل تنتظر توم، وخرج العم سيلاس مجددًا للبحث عنه قبل الإفطار، لكنه لم يجد أثرًا له، فلما عاد تذكر الخطاب الذي التقطه في اليوم السابق، وأعطاه للخالة سالي التي قالت: «عجبًا! إنه من سانت بيترسبرج؛ من أختي!»

لكنها قبل أن تفتحه أوقعته وركضت نحو الباب، إذ لمحت شيئًا بالخارج، رأيته أنا أيضًا. كان هذا توم سوير ممددًا على مرتبة، مع الطبيب العجوز وجيم الذي قيدت يديه خلف ظهره ومن خلفهم الكثيرون يسيرون في إثرهم.

بدأت الخالة سالي في البكاء واحتضنت توم. كان يشعر بتعب شديد، ولم ينبس بكلمة، لكن الخالة سالي والعم سيلاس سعدا بشدة عندما وجداه حيًّا. صعد بعض من هؤلاء القوم بتوم إلى الطابق العلوي، فيما تبعت أنا الحشد الذي ابتعد مع جيم. حسبوا أنه المسئول عن كل المشكلات التي وقعت الليلة الماضية وغضبوا منه غضبًا شديدًا، لكنه لزم الصمت وتظاهر بأنه لا يعرفني، وصحبوه إلى الكوخ نفسه كما فعلوا من قبل، إلا أنهم في هذه المرة قيدوه بالكثير من القيود ووضعوا حراسًا خارج الكوخ، وعاملوه بقسوة شديدة إلى أن طلب منهم الطبيب أن يحسنوا معاملته.

قال الطبيب: «عندما عثرت على الصبي استطعت معالجة جرحه بسهولة، لكنه لم يكن في حالة تسمح لي بأن أتركه وأطلب المساعدة. تدهورت حالته أكثر فأكثر وهذى بشتى الحماقات، فقلت إن علي أن أطلب له المساعدة، وما إن قلت هذا حتى خرج هذا العبد من حيث اختبأ وقال إنه سيساعدني، وقد فعل، وأحسن مساعدتي إلى حد بعيد؛ ساعدني على الاعتناء بالصبي إلى أن رأينا بعض الرجال يمرون بنا في قارب بالنهر، فتركهم يكبلون يديه ولم يثر المشاكل ونحن عائدون به مع الصبي إلى المنزل. إنه ليس رجلًا سيئًا أيها السادة.»

فألان هذا قلوب الكثيرين له. كنت ممتنًّا لهذا الطبيب العجوز لأنه أسدى إلى جيم معروفًا طيبًا، واتفق الرجال على أن جيم قد أحسن صنعًا ونزعوا عنه الكثير من قيوده.

الفصل التاسع عشر

النهاية

شعر توم في الصباح التالي أنه أفضل حالًا بكثير. استيقظ وأنا والخالة سالي في غرفته.

فقال وهو ينظر إلي: «عجبًا، أنا في المنزل. كيف حدث ذلك؟ وأين الطوف؟»

فقلت له: «الطوف بخير.»

فسألني: «وماذا عن جيم.»

فأجبته: «بخير كذلك.» لكن كان من الصعب جدًّا أن نتحدث والخالة سالي في الغرفة.

فقال: «جيد! رائع! الآن جميعنا بخير وبمأمن! هل أخبرت خالتي بالأمر؟»

كنت سأجيب بنعم، لكن الخالة سالي قاطعتني وقالت: «بم يخبرني يا سيد؟»

فقال توم: «بالكيفية التي جرى بها الأمر برمته.»

فقالت: «ما الأمر برمته؟»

– «الأمر برمته؛ أعني كيف أطلقت أنا وتوم سراح العبد الفار.»

– «رباه! عم يتحدث هذا الصبي؟»

– «نحن أطلقنا سراحه. أنا وتوم فعلنا هذا. وفعلنا هذا ببراعة أيضًا.»

ثم أخبرها بالأسابيع التي قضيناها في التخطيط، والأغراض التي أخذناها من المنزل، والخطابات والرسومات التي تركناها وعن مطاردة الرجال لنا وإطلاقهم الرصاص علينا.»

فقالت: «لم أسمع بمثل هذا من قبل. إذن كان هذا أنتما أيها الوغدان. أنتما من أحدث كل هذه المشكلات وأخاف الجميع إلى هذا الحد.»

غضبت غضبًا شديدًا، لكن توم شعر بالفخر والسعادة الشديدة حتى إنه لم يستطع احتواء فرحته، إلا أنه بالطبع لم يعد بهذه السعادة عندما علم أن جيم لم يعد حرًّا. فنهض وجلس منتصبًا وطلب إطلاق سراح جيم.

قال: «إنه يتمتع بحريته كأي شخص آخر.»

فقالت هي له: «عم تتحدث؟»

فأجابها: «لقد عهدته طوال حياتي كما عهده توم. السيدة واتسن توفيت قبل شهرين وقد واتاها شعور بالذنب الشديد بعدما غادر جيم لأنها أرادت بيعه، فأطلقت سراحه في وصيتها.»

فقالت الخالة سالي: «إذن لماذا بحق السماء تكبدت كل هذا العناء لمساعدته على الفرار إن كنت تعلم أنه حر؟»

فأجابها: «بالطبع من أجل المغامرة!» ثم حدق في الباب وقال: «الخالة بولي!»

كانت الخالة بولي تقف وهي تبدو لطيفة وودودة كملاك. ركضت الخالة سالي إليها واحتضنتها وبكت، فزحفتُ متسللًا إلى تحت الفراش. حيت الخالة بولي توم فقالت الخالة سالي: «هذا ليس توم، إنه سيد. توم كان هنا قبل لحظة. أين هو الآن؟»

فقالت الخالة بولي: «تعنين أين هاك فين.» وطلبت مني أن أخرج من تحت الفراش.

بعدها اتضح كل شيء. أخبرت الخالة بولي أختها والعم سيلاس عني. كان الخطاب الذي أوشكت الخالة سالي على قراءته — قبل أن يعود توم — من الخالة بولي التي كاتبتها لتخبرها بأنها آتية لزيارتها؛ سمعت الخالة بولي أن توم وسيد كلاهما هنا، ولما كانت تعلم أن سيد لديها في بيتها، أرادت أن تكتشف حقيقة الأمر.

لم نلبث أن حررنا جيم من قيوده، ولما علمت الخالة بولي وسالي والعم سيلاس بمساعدته للطبيب افتخروا به، وأعطوه كل ما أراد أن يأكله ووفروا له مكان إقامة ملائمًا.

تحدثت أنا وتوم كثيرًا عن القيام بالمزيد من المغامرات معًا، لكنني قلت إنني لن أستطيع أن أصحبه إذ لم يتبق معي أي نقود. لم يكن لدي شك في أن والدي قد استحوذ على أموالي كلها من القاضي ثاتشر بحلول هذا الوقت.

فقال توم: «لا لم يفعل هذا. المال كله هناك. لم يعد والدك منذ مغادرتك، أو أنه — على أقل تقدير — لم يعد قبل أن أترك البلدة.»

عندئذ بدت على جيم الجدية الشديدة وقال: «إنه لن يعود مجددًا يا هاك.»

فسألته: «لم يا جيم؟»

لم يرد أن يقول شيئًا، لكنني أصررت على أن يجيبني، حتى فعل.

قال: «هل تذكر المنزل الذي رأيناه طافيًا على النهر وبداخله رجل ميت؟ أتذكر كيف أنني نظرت إلى الرجل ولم أردك أن تنظر إليه؟ حسنًا، أنت تستطيع أن تحصل على مالك متى شئت؛ لأن هذا الرجل كان والدك.»

شُفي توم ولم يعد هناك الكثير لأكتب عنه. وهذا أمر يسعدني؛ فلو كنت أعلم مدى صعوبة تأليف كتاب، لما شرعت في ذلك. لن أفعل هذا ثانية.

وإن كنت أعتقد أنني قد أرحل ثانية عما قريب. تقول الخالة سالي إنها ستتبناني وتهذبني. لا أستطيع احتمال هذا، فقد مررت به من قبل.

هنـــداوي